كوكب عنبر

محمد ربيع

رواية

كوكب عنبر

كوكب عنبر

الطبعة الأولي

رقم الأيداع :٣٣٥

الترقيم الدولي

تصميم الغلاف :ايهاب خليل

جميع الحقوق محفوظة

الكتب خان للنشر والتوزيع ®

١/٣ شارع اللاسلكي – المعادي الجديدة – ١١٧٤٢ – القاهرة

تليفون

بريد اليكتروني :info@kotobkhan.com

موقع اليكتروني :www.kotobkhan.com

هذا الكتاب هو أحدي ثمرات ورشة "الرواية الأولى التي أقيمت برعاية الكتب خان في الفترة من مارس وحتى أغسطس ٢ ٠٩ تحت إشراف الكاتب ياسر عبد اللطيف.

كوكب عنبر

رواية

محمد ربيع

شاهر

وصلتُ إلى العباسية متأخرا، أبحث عن المكتبة ولا أجدها. أسأل أحدَ المارة، ثم أسأل آخر، لا يعرفان. أسأل رجلاً واقفاً في كشك سجاير، يدلني على مكان بعيد في شارع أحمد سعيد. أتحرك إلى ما وصفه وأنا أسأل الناس كي أتأكد. كثيرون لا يعلمون شيئا عن المكان، هل العباسية ضخمة إلى هذا الحد؟ أم أن المارة لا يعيشون بها؟ يأتون لقضاء المصالح ويعودون؟ أرى الكثير من الورش ومحلات قطع الغيار، وسيارات مركونة على جانب الطريق ببطون مفتوحة تنتظر الإصلاح، محل عصير، فأقف وأشرب سوبيا، بعده محل فسخاني تعرفتُ عليه من رائحته، تذكرتُ أني لم آكل الفسيخ منذ مدة. أمشي قليلا وأسأل عن المكتبة، تخيلتها مبنى ضخماً مهيباً بشبابيك عالية ذات أقواس، وسقف عال، وعلى جدرانها زخارفُ وورقُ حائط فخم. ولكني سأدخلها بعد قليل، لم أتخيلها اذن؟ أمشي في أحمد سعيد إلى آخره، لا أجد شيئا، أعود فأسأل مكانيكي عن المكتبة، يشير إلى الناحية الأخرى من الشارع، و يخبرني أنها هناك، بالقرب من كلية الهندسة، أعود ماشيا المسافة كلها، أصل لكلية الهندسة لأجد بجانبها مبان ضخمة لمصنع، وأمامها عمارات سكنية، أجلس على دكة حجرية مراقبا طلبة الكلية وهم يتحركون حولها، ينتابني يأس، سأترك العباسية عائدا للبيت، منتظرا الغد كي أعاود

البحث، أو أعود للعمل طالبا إعفائي من المهمة. لا أفهم كيف يطلبون مني مهمة كهذه بلا مساعدة أو حتى دليل. أرفع جسدي من على الدكة وأتحرك، أشاهد السور هناك بعيدا بسطح أصفر رملي خشن، يقترب لونه من السواد في جزئه السفلي، وأرى البوابة، باب خشبي ضخم، مطعم بالحديد، لا أعلم هل الغرض اضفاء المتانة أم الزخرفة، أصل إلى البوابة وأدقها، لا جرس هناك ولا بواب يجلس على دكة بجانب البوابة، ينفصل باب صغير، ينفتح ويدور إلى الداخل، باب صغير داخل الباب الكبير، وأرى شابا يفتح متسائلا نعم؟ علمت منه أن المكتبة قد أغلقت، تنتهي ساعات العمل في السابعة، شكرته وأخبرته أني سآتي غدا.

أعود ماشيا في الشارع نفسه، أفكر في ركوب ميكروباص يقربني من المترل، قل الزحام كثيراً والسيارات المارة قليلة وكذلك الناس، سأشتري فسيخا من الفسخاني، أتردد متذكرا رائحته التي تعلق بالأثاث والحوائط ، وقفت أمام المحل محتارا ، بإمكان البائع فتح السمكة وتنظيفها لو طلبت منه ذلك، أتردد مرة أخرى و أمشي مبتعداً عن المحل، أسير وقلبي منقبض، فاليوم مر بلا نجاحات. أستاذ عبد الرحمن يشغل تفكيري، وآخر مصائبه أنه أرسلني إلى هنا، طلب مني تفقد المكتبة قبل البدء في المهمة. أنا عادة لا أفعل شيئا في المكتب، أجلس منتظرا مهمة بسيطة قصيرة، تأتي مرة في الأسبوع،

وأستاذ عبد الرحمن دائما يبعد عني المهمات المعقدة أو الطويلة، هذه أول مهمة خارجية يسندها إلي.

"أنت رجل قارئ"، قال لي بابتسامة، اعتاد أستاذ عبد الرحمن على مشاهدتي ممسكا بكتاب، في حين يقرأ باقي الموظفين الأهرام أو يتحدثون، العمل قليل، وحتى الآن لا أعلم لم يعينون مثل هذا العدد الضخم؟

لما سألت أستاذ عبد الرحمن عن مدة المهمة، قال لي: أمامك شهر، مدة كافية لكتابة تقرير تقيم فيه المكتبة، أريد تقريراً تفصيلياً عن المبنى.

أرسلني إلى الأرشيف كي أستلم ملف المكتبة وأنسخ أوراقه، أمسكت الملف الضخم، تصفحت الأوراق التي تحكي تاريخ المكتبة، وتلك التي تحوي وصفا لها، وأخرى بها مصروفات، وأسماء العاملين، وأوراق أخرى متفرقة. وقعت باستلام الملف، ووعدتُ الموظف بإعادة الملف فورا ، ذهبت إلى قسم التصوير أو "المكنة" كما نسميه، وقفت منتظراً بينما يتم نسخ كل ورقة، الأوراق الكبيرة يتم تصغيرها لتتوافق مع مساحة الورقة البيضاء، والأخرى الصغيرة تترك فراغا كبيرا في الورقة البيضاء. أوراق مدبسة في رزم صغيرة، والباقي متفرقة، أجزاء من مقالات في صحف، أو ربما إعلانات، أكوام من

الإيصالات والفواتير. كل هذا يتم نسخه وإعادته إلى الملف الأصلي، أضع النسخ الطازجة في ملف جديد، ذي غلاف أكثر صلابة من الملف الأصلي، الأوراق ذات مقاس واحد ويسهل تسويتها؛ لتصبح في النهاية وكأنها كتاب أو مجلة بغلاف أخضر بلا عناوين أو ترويسة. بينما يقبع الملف الأصلي مهترئا مقطع الأطراف على المكتب، يظهر ورم في منتصفه، حيث الأوراق الصغيرة تتجمع وتضيف سمكا للملف، فيبدو كشيخ ذي كرش صغير، أخذت الملفين معا، الأصل والنسخة، أعدت الأصل إلى الأرشيف، وحملت النسخة معي إلى الخارج.

وأنا في طريق العودة إلى مترلي، تساءلت لم لم أفتح نسخة الملف تحت إبطي، وأبحث عن العنوان بها بدلا من إضاعة الوقت في البحث؟ لم أحاول فتح الملف، فلا معنى الآن للبحث عن العنوان.

وقفت أمام المبنى، خيالاتي كلها كانت بعيدة عن الواقع. المبنى يبـــدو وكأنه عمارة سكنية عادية تماما، لا توجد لافتة ضخمة باسم المكتبة، فقط قطعة رخام صغيرة محفور عليها "مكتبة كوكب عنبر أيضا لا أجد مدخلا واسعا ودرجاً عريضاً، بل مدخل صغير ضيق. أدخـــل فأجد السلم مكسوا برخام أبيض، أو كان أبيض فيمـــا مـــضى، في

المدخل يجلس موظف الاستقبال، أم ربما هو أمين المكتبة؟ يقرأ جريدة على مكتبه الذي بدا وكأنه لم يتحرك من مكانه منذ قرون، تقدمت منه وعرفته بنفسي، أنا موظف في هيئة الأوقاف وزميل لــه، أبــو المعاطي أبو الخير ابتسم لي ودعاني للدخول، أخبرته أني سأتجول قليلا بالداخل، طلب مني أن أترك حقيبتي في أحد الخزائن المرصوصة على الجانب، تركتها.

أشار بيمناه إلى باب قريب،" هذه أول شقة في المكتبة!" أدرك الآن أن المبنى لم يشيد ليكون مكتبة، كأني دخلت شقة سكنية، صالة واسعة تحوي طاولة للمطالعة وبضعة كراسي، تبدو على جوانب الصالة أبواب عدة غرف، وأرفف خشبية تحمل الكتب، وخزائن كثيرة مرصوصة، بين كل خزانة والأخرى أقل من متر. هكذا تبدو الغرف مزدحمة بالخزائن والأرفف، أدخل إلى إحدى الغرف أمر بعيني على الأرفف، ينتابني الفضول، أبدأ في قراءة عناوين الكتب، أجد رواية يتلوها كتاب عن مقارنة الأديان يتلوه كتاب في فن الاقتصاد، أجد خليطا غير مترابط من الكتب ذات الموضوعات المتفرقة، الرف غير مرتب بالمرة. أخرج منِ الشقة، وأصعد إلى الطابق الأول، شقة واحدة تشغل الطابق كله، مماثلة تماما لشقة الدور الأرضي، صورة طبق الأصل لولا اختلافات بسيطة هنا وهناك، قرأت العناوين، لا

أجد ترتيبا لموضوعات الكتب كما بالأسفل، في الخارج أجلس على الكرسي الجلدي ، أتأمل المكان حولي. أنا جالس على كرسي جلدي ضخم في بسطة سلم عمارة تحوي مكتبة. مشهد كوميدي للغاية، مطلوب مني تقييم مكتبة كهذه، أرى أنه من المناسب فعلاً هدم هذا المكان المهمل وإنشاء محطة مترو مكانه، بدلا من بهدلة المواصلات حتى الوصول إلى العباسية.

يدلف أول زائر في هذا اليوم، رجل ستيني ينظر إليّ بعينين متفحصتين، وكأنه يتساءل من هذا الشخص، يدخل إلى الشقة ويختفي داخل إحدى الغرف. سأكتب إذن تقريرا أوصي فيه بالإبقاء على المكتبة، فالسيد مشمش المارق أمامي حالا يرتادها، وهو كاف لاستمرارها، أفقد الاهتمام وأرى أن الحكاية عبثية تماماً هيئة الأوقاف تدفع لموظفي المكتبة مرتباهم، وتتكفل بمصاريف استهلاك الكهرباء والمياه والتليفون، ولا شيء آخر. المكان خارج خريطة التطوير، هذا إذا حدث تطوير من الأصل، المكتبة لا يتم دعمها بأي كتب من الهيئة، لا توجد ميزانية مخصصة لشراء كتب جديدة، المكان منسي تماما عندما أصعد للطابق الثاني، أجد كراسي جلدية ضخمة على بسطة السلم، وباب شقة يفضي إلى أرفف وكتب، أصعد حتى نهاية العمارة، لأجد المشهد متكرراً أفكر في أن صاحب المكتبة كان متسرعا للغاية، فلم يفكر في تصميم لمكتبة، بل شيد عمارة

عادية، واستخدمها بعد ذلك بغرض تخزين الكتب، ربما سأجد شيئا ما عن سر العمارة المكتبية تلك في الملف. الطوابق الخمسة جعلتني ألهث، وقفت مستنداً إلى درابزين السلم ناظرا إلى الفراغ في الأسفل. أشاهد موظف الاستقبال جالساً على مكتبه وقد بدأ في تقليب أوراق أمامه، أراقبه وهو يقلب أوراقه ويقرأ ثم يكتب، يراجع الحسابات استعدادا لتقديمها لي؟ يحسبني الرجلُ مفتشا من الهيئة، ويبدو أنه يلعن هذا الصباح، أفكر في خبث: لأتركه في قلقه، القلق أحيانا يؤدي إلى نتائج حسنة.

رخام الدرجات مشروخ في بعض الأماكن، وعلى بسطة السلم رخام مكسور، بعضه تم استبداله بقطعة حديثة، صفراء مترِبة تبدو دخيلة على لون الرخام الأبيض، على أحد البسطات أشاهد قطعة واحدة ضخمة من الرخام الأبيض تغطي البسطة كلها، مربع كبير تمت تسوية أطرافه ثم تركيبه، هل كان وزنها ثقيلا؟ كيف تم حملها إلى هنا؟ الدرجات أطرافها سليمة، ليست منحوته كما أشاهد عادة في مباني وسط البلد القديمة. ومع ذلك تبدو الدرجات عتيقة، لونها الأبيض الأصلي تغير إلى لون رمادي فاتح أو أبيض متسخ، أحاول ملاحظة أي زخارف على السقف أو الجدران، ربما قصد باني العمارة الاقتصاد فأهمل التفاصيل والزخارف، واستعاض عنها بجودة الصناعة.

أنزل الدرجات في كسل، دخلت إلى الشقة في الطابق الرابع لأتجول بين الأرفف مرة أخرى، أجد كتابا عن الشعر الجاهلي، ومجلدا به أعداد من مجلة "كل شيء"، كانت نظرة الناس قديما قاصرة، لدرجة إطلاق اسم "كل شيء" على مجلة. ولأول مرة أرى كتابا بالفرنسية، بل كتابين، ثم آخر بلغة أخرى لم أعرفها، هناك عشرات الكتب بلغات أخرى غير العربية.

تجذبني الكتب ذات القطع الكبير، وجدت أحدها بارزا عن باقي الكتب، أسحبه فأجده عن تشريح الجسم البشري، فيه رسومات دقيقة تصف الأعضاء الداخلية للإنسان، لا أعلم مدى صحتها، ساذجة إذا ما قارنتها مع ما رأيته من قبل من رسوم ملونة للأعضاء الداخلية، الرسومات مرسومة بالحبر الأسود، والكتاب مطبوع ببنط حديث، بطابعة كمبيوتر، على ورق لامع، بينما تبدو الرسومات قديمة آتية من عصر مضى، لا أفهم كيف يتفقان، أحاول قراءة الكلمات، ولكني لا أميز اللغة، أحرفها اللاتينية تبدو مألوفة تماما ولكني لا أستطيع قراءة كلمة واحدة، أظن أنه كتاب يؤرخ لرسومات التشريح القديمة، أعمال دافنشي المثيرة للضحك هذه الأيام، الرجل كان رساما ماهرا، ولكنه كان يرسم ما يجهل، يرسم تفاصيل الجسد بلا معاينة، بلا تشريح، لا يشق الجلد ويبحث، فقط يتخيل ثم يبهر من حوله بريشته، يرسم بدقة وبراعة، يضع خياله

الأسطوري على الورق. أتصفح الكتاب لأجد لوحة أخرى لدافنشي، تظهر الأعضاء التناسلية للرجل والمرأة، يظهر واضحا الوتر الذي يربط قضيب الرجل بعموده الفقري. أقلب الصفحات فأجد رسما آخر يظهر أعضاء متلاصقة في الجمجمة بدلا من المخ الواحد، أعيد الكتاب حيث كان.

أعود إلى الأسفل لأقابل مدير المكتبة، يجب عليّ تعريفه بنفسي وإعلامه بمهمتي، أقابله على الدرج و يتعرف هو عليّ، أقدم له خطاب المهمة، الخطاب مبهم، لا يشرح طبيعة مهمتي، يوصي بمساعدتي في كتابة تقريري عن المكتبة، لا يوحي بأية أخطار. من المعتاد زيارة موظفي القسم إلى المكتبات، يطلعون على السجلات، ويتابعون حركة الزوار وعددهم، الهدف العام من الزيارات هو التقييم الروتيني، أحيانا يحتاج الشخص إلى ساعة واحدة لمعرفة كل ما يريده عن المكتبة، وساعة أخرى لكتابة التقرير ثم ينتهي الأمر. تتم قراءة التقرير من قبل رئيس القسم والمدير العام، يوقعان بالعلم، ثم يحفظ التقرير ضمن ملف المكتبة. المدير لم يعلم بعد أني سأزوره زيارات متعددة، وسينتهي الأمر بي إلى كتابة تقرير سيؤدي غالباً هدم المكتبة، فإذا كان الهدم حتمياً ولا مفر منه، فلم كل هذا التعقيد؟ المهمة صعبة، و لم اختاروا شخصا مثلي ليقرر؟

ينظر المدير إلى ما فوق رأسي أثناء حديثه معي، الرجل طويل، أنيق لا يليق ملبسه بموظف يعيش على "إعانة" من وزارة حكومية، يبتسم بلطف لكنه يتكلم قليلا، ربما صادفته أثناء مروره اليومي، هو مشغول بمتابعة ما يحدث داخل المبنى، وأنا آخذ الكثير من وقته، يخبرني أنه في خدمتي دائما بصفتي موظفا يؤدي مهمة، أو زائرا عاديا للمكتبة.

ثالث شخص قابلته في المكتبة لم يبد اهتماما كبيرا بي، تركني ونزل إلى الدور الأرضي حيث مكتبه، أشاهد الضوء الضعيف بداخل غرف الشقة، الضوء فوق أرفف الكتب خافت، لا يكشف الأسماء والعناوين، أتذكر أن الضوء كان خافتا في الدور الأعلى، كان الضوء قوياً في صالة الشقة وعلى بسطة السلم فقط حيث كراسي المطالعة. أول علامة على الاهتمام؛ يقولون أن الضوء يفتك بالورق، ساعة بعد ساعة يؤثر الضوء في الورق، يفككه ويحلله إلى تراب، أجزاء صغيرة قد تتطاير إذا لمستها. يكوِّن النور الشجرة على مهل، ليفتتها بعد سنين على مهل أيضا، يقولون أن حبر الطباعة أو النسخ ينفصل عن المخطوطة ويقع، وأن بعض ألوان الصور تتلاشى ويبقى بعضها عالقاً بالورق، مكونة رسومات وصور منقوصة.

أجلس على مكتب المدير. يبدأ حديثه معي بالسؤال عن معارفه في الهيئة، فلان وعلان اللذين عمل معهم أو تعرف عليهم، لا

أعرف اغلبهم، قابلت القليل منهم وحادثتهم. يسأل عن مديري، ولما علم أني أعمل تحته إمرة الأستاذ عبد الرحمن، تذكر أنه تقدم معه لنيل الوظيفة نفسها. كانت الهيئة كانت قد أعلنت عن وظائف شاغرة، وطلبت تخصصات متعددة، وأعلنت عن امتحان للمتقدمين سيجري في جامعة القاهرة، حكى لى الأستاذ أحمد عبد الرحيم عن الأستاذ عبد الرحمن الجالس بجانبه في قاعة الامتحان ، وأنه طلب ورقة اجابة اضافية؛ لأن الأولى ملأها بالكامل، كانت الأسئلة من نوعية "ما هي مساحة مصر ؟"، "من قائل عبارة "لقد ولدتنا أمهاتنا أحرارا" و"من هو قائد ثورة ١٩" كانت الأسئلة قليلة ولا يمكن أن تملأ الإجابات صفحة واحدة من الكراسة، ولا يعلم الأستاذ أحمد عبد الرحيم كيف ملأ الأستاذ عبد الرحمن الكراسة بأكملها. في أحد الأيام بعد تعيينه تقابلا في الهيئة، وأخبره أن السر في تعيينه كان في الإجابات المطولة، وأن المصححين كانوا يقيسون الإجابات بالشبر، وهي دلالة قاطعة على روتينية المتقدم للوظيفة وميله الطبيعي للمماطلة والتسويف ووضع العراقيل. وهكذا ومن خلال تطبيق الأستاذ عبد الرحمن لنظريته، استطاع الوصول إلى منصب المدير العام، بينما وصل الأستاذ أحمد عبد الرحيم إلى منصبه هذا.

تذكر الحكاية بكثير من الحيادية بالطبع، فلم ينتقد الأستاذ عبد الرحمن بصراحة، مبتسما ابتسامته الدبلوماسية بين كل جملة

وأخرى. ولكن الأمر كان كافيـــاً لألمس انتقاده لمديري: الأستاذ عبد الرحمن الروائي. بعد أن التحقت بالعمل ببضع أسابيع أتاني وهو يتأبط مخطوطا، "أول رواية أكتبها" قال لي، أتاني طالبا مني ما هو أكثر من ذلك، طلب مني قراءهما وإبداء رأيي فيها، قائلا جملته التي سيصدع رأسي بها من اليوم فصاعدا: "أنت قاريء قديم" وقد أثبت لي بجدارة أنه كاتب أقدم، الرواية كانت عبارة عن خليط من الحرافيش والثلاثية وزقاق المدق، تاريخ مطول لعائلة تعيش في الفجالة، وملحمة طويلة من الأحداث والشخصيات المطابقة لشخصيات محفوظ، تناص أبدى حكم الرواية، وكأن الرجل قطع صفحات من روايات محفوظ وأعاد صياغتها ثم رتبها مرة أخرى في كتاب، في النهاية اكتشفت أن اسم إحدى الشخصيات يتحول خلال الرواية إلى السيد أحمد عبد الجواد. في اليوم التالي أعدت المخطوط له وأنا أتذكر جعفر الراوي، مخبراً إياه بضرورة البحث عن ناشر لهذه الرواية العمدة.. وهكذا، ذاب الثلج بيني وبين أحمد عبد الرحيم، قهقه الرجل مستمتعا بالحكاية، وظل ناظرا إلي وهو يهتز ويحرك رأسه يمينا ويسارا غير مصدق.

انتظرت حكايته التالية عن الأستاذ عبد الرحمن، هكذا نحن، نتبادل الكلام، نتبادل الحكايا، يستعرض كل منا معلوماته وتجاربه، لا نمل إذا انتهت حكايانا عن الموضوع ذاته، بل نتفرع إلى مواضيع

أخرى لا علاقة لها بموضوع الحديث الأصلي. لكن أحمد عبد الرحيم خدعني، بدلا من حكاية ما يعرفه عن أستاذ عبد الرحمن، دعاني للجلوس في المنور!

نخرج من مكتبه ليفتح بابا مهترئا، يظهر ضوء النهار حالما يفتح الباب، لا أعلم هل أدخل إلى المنور أم أني أخرج من المكتبة؟ شغلتني فكرة وجود فراغ داخل المبنى، هو جزء من الفراغ خارجه، فراغ يحيطه المبنى ويحدده. توقفت تساؤلاتي فورا، شغلني ما رأيته أمامي في زاوية المنور، وجدت شجرة عالية، آخر ما توقعت رؤيته في هذا المكان، اقتربت منها ووقفت تحت الأغصان، تحجب عني ضوء النهار الضعيف أصلاً، تكسره حوائط المنور العالية، بحيث لا يصل إلا نور خافت تحت أفرع الشجرة، أنظر إلى الأرض فأرى حبات توت بيضاء صغيرة، أحدق بين الأغصان فأكتشف حبات أخرى معلقة بيضاء وحمراء، وأنا اعتقدت من قبل أن الشجرة لا تطرح إلا لونا واحدا من الثمار، أجلس على الكرسي البامبو أسفل الشجرة، على الفور أشعر برطوبة المكان والهواء البارد الآتي من الأعلى، يأتي الأمين بأكواب الشاي، الآن فقط ألحظ أحمد جالسا بجانبي، صامتا يقرأ جريدته، تاركا إياي بلا إزعاج.

سيد

انقطع الماء مرة أخرى، ألم نركب محركا كهربائياً؟ يسمونه موتورا، موتور يا أولاد الكلب؟ ذقني ملطخة بالصابون و لم تلمسها الموسى بعد، أؤجل اللحظة المازوخية إلى ما بعد الصرخات الصباحية. "شغل المحرك أيها السني القبيح" أنادي عبد الحليم السني، صوتي يخرج من نافذة الحمام ليصل إليه في غرفته القميئة، حارس عمارة سني، أنا سمعت عن طبيب سني، عن مهندس سني، وهو صنف من البشر منتشر، اما الحارس السني - الذي يسمونه بوابا فهو جديد، وحيد من نوعه ومتفرد. "اصعد يا أبا اللحية المنتنة"، الموسى حادة هذا الصباح، ومزاجي السادي يلح علي، سأفتح حلقه اليوم، كل ليلة أقرر هذا ويشغلني أمر ما في الصباح التالي عن فتح حلقه، اليوم سينتصر مزاجي السادي. الغبي يغلق الباب بجلبة، يهتز الزجاج العتيق مشجعا مزاجي السادي، أمد ذراعي على آخرها استعدادا للنحر، للتضحية، أنت فداء حراس العمارات يا حليم، أنتظرك بصبر بروميثيوس، ولكن لحيته المنتنة تمنعني من الحركة، ألن تحلق عفن الوجه هذا؟ يناديني يا داكتور، أناديه أبا اللحية المنتنة، اسمه عبد الحليم، صوته حاد ويسمي نفسه رمضان، شخص آخر ذو لحية أكثر إنتانا أقنعه أن الحليم ليس من التسعة وتسعين، فسمى نفسه رمضان، لحية نبت لها آدمي. الثلاث خنافس المتعايشة داخل عفن

لحيته تتوتر، ترفع الثالثة شعرة من لحيته، تمسك بها أمام عيني وتفرد ساعديها إلى أقصى مدى، تتراقص وهي تشد الشعرة، تهددني بقطعها، خوفي يجعلني أغمد سيفي وأحسن لهجتي. ألن تحلقها يا منتن؟ هاك الصابون، احذر فقد يحرق بشرتك !" اليوم أول الشهر، النتانة المتحركة تطلب مني: "الإيجار يا داكتور"، نعم، أفهمك تماما يا كلب المالك، يا منتن. إغلاق المحرك ضربة قاضية، وضعط رهيب علي وأنا مصبن الذقن، المال مرمي على التراب في مكانه المعتاد يا منتن، هبوطه السريع، مذهل انقلاب حاله، يجري على أربع، يديه وركبتيه، يلتقط المال بأسنانه ثم ينبح سعيدا، بشكل آلي يعود الماء إلى الجريان، يختبيء مزاجي السادي، ليظهر المزاج المازوخي وأنا أقطع شعرات لحيتي القصيرة، بوركت شعرات لحية حليم، ما مسها سوء طالما لهث، عافاها الصابون ومرحت خنافسها في ربوعها.

ما أجمل المشهد من النافذة، غابات الخراسانة تسد الأفق، رائعة، مبهرة، شهية، شكرا لله على نعمائه. الأطباق الطائرة تغار من أطباق الدش، الدشوش، الدشاديش الصغيرة ترفع وجهها نحو الإله الدائر في السماء، أطباق أطباق أطباق، خراسانة خراسانة خراسانة، تعيش التكنولوبيا مطورة الحياة.

يجب أن أغير الأرضية الخشبية، بالأمس استمعت لشكوى السوس، السوسة القرنفلية تلك أرهقت قلبي، يا لفصاحتها ويا

لطلاوة حديثها، استمعت وأنا خجلان، كيف أترك السوس بلا طعام؟ مجاعة، ضياع، تشرد. السوس في بيتي جائع، وأنا رب البيت، أي تقصير هذا؟ من يحمل وزر السوس غيري ؟ لن أستسلم أمام الزيادة التصاعدية في أعداد السوس، لا، لن تصبح الزيادة السكانية عائقا أمام التقدم، سأوفر لهم خشبا جديدا، فنلندي، أمريكي، كندي. لن تجوع سوسة في بيتي بعد الآن.

ترتفع السوائل حتى حلقي، حريق في مريئي، لا أستطيع السيطرة على ما بداخلي، تبدأ الألوان في التلاشي، وتتحول إلى الدرجات الباهتة المعتادة، تنكمش الكراسي والطاولات إلى الحجم الطبيعي، وتتخشب الوسائد على السرير مرة أخرى وأقرر تغييرها كما أفعل كل صباح، حريق المريء يتصاعد، الوقوف يساعد على التخلص من الوجع، أرفع رأسي وأقف على أطراف أصابعي وأفرد ذراعاي، لست مخلصا للبشرية، فقط أحاول التخلص من آلامي، أقلص عضلات جسدي كله، أحاول نسيان الألم بتألم آخر وهمي، خيالي.. ثم تنفتح النافذة على اتساعها، تدخل السحابه السوداء لتجلس على السرير، تمسك رأسها كأنها تفكر، كأنها رجل ضخم يفكر، الإنسان الدخاني يعصر رأسه براحته، تتسخ الأغطية بفعل السحابة الجالسة، ولكن الأمور تتطور وتبدأ السحابة الجالسة في إمساك رأسها بكلتا يديها، وكأنها تعاني من صداع، آلام رهيبة

تجعلها ترتعش وتهتز، مشيت نحو السحابة وأنا غاضب من الفوضى التي أصابت الغرفة والسخام الذي استقر على الأغطية والسجاد، اتسخت قدماي من السواد الذي سيطر على الهواء. تتغير هيئة الرجل الجالس المصدوع، تتضخم وتعلو وتتسع، ينحني رأسه عندما يصطدم بالسقف والتضخم يزداد، ينحني أكثر ويشغل ربع حجم الغرفة، ما بك يا صاح؟ أسقيم أنت؟ يرد صوت طفل صغير علي لست سقيما، أنا فقط أتخابث.

يلتهب مريئي ويذوب تحت الحامض الذي يرتفع هذه المرة حتى يصل إلى حلقي ويلمس منبت لساني، ارتد الحامض إلى جوفي سريعا، تاركا فمي يتقلص ويتجعد من الصدمة المفاجئة، أجلس على السرير، لعابي يسيل من فمي، ولا أستطيع السيطرة عليه.

متى ينتهي الهذيان؟

نزلت على السلم، كان عبد الحليم مازال واقفا على باب إحدى الشقق، منتظراً الإيجار، أنا فقط صاحب الأخلاق الرفيعة الذي أسمح له بدخول شقتي، كيف استطاع فتح الباب ودخول الشقة اليوم صباحاً؟ رافقني أثناء نزولي وهو يثرثر بكلام عن نطاعة المستأجرين، نظرت له بقرف ــ كما أفعل عادة ــ أردف بأنه لا يقصدني بكلامه ولكن يقصد الناس الذين يؤخرون دفع الإيجار ويتبجحون عندما يلح عليهم في طلبه. بالطبع، أنت يا حليم لحوح

كالمرض، هم يدفعون لك ما تطلب تخلصا من إلحاحك، ودائما ما إن يتخلص المرء منك حتى يراك مرة أخرى، تسعى إلى شيء ما، طالبا خدمة ما. حيَّاني ودلف إلى غرفته أسفل السلم، حق وليست غرفة، الشمس حارقة بالخارج، حرقة بالداخل تليها حرقة بالخارج.

اليوم الثلاثاء أكثر أيام الأسبوع ازدحاما ، ولكن الشارع خال تماما من المارة، والشمس الحارقة تدفع الناس للهروب تحت الأسقف والظلال، وشارعي بلا ظلال تقريبا ، هناك مجموعة من الأغبياء قاموا بقطع أفرع الأشجار، أنا أتفهم أن يتم تقطيع الأفرع الميتة أو الضعيفة في أمشير، الأمر الذي يجعل الأوراق تنمو بشكل أكثر كثافة في الأشهر المقبلة، أما تقطيع الأفرع الخشبية في مايو فهو غباء ما بعده غباء، وهو دليل واضح على تحكم أصحاب العقول الذاوية في أحيائنا وشوارعنا. أيتها الآلهة! حرارة القيظ تذيب رأسي وتشوي جلدي، أسرعت من خطاي لأصل إلى مكان ظليل.

شاهدت بالأمس فتى يحضر لأول مرة للمكتبة، شاب تبدو عليه سيماء الهدوء والظرافة، ولما سألت عنه المدير النصاب قال شاب يعمل في هيئة الأوقاف. واستطرد ــ كعادته ــ محاولا التقرب مني: أنت تعلم أننا نتبع هيئة الأوقاف. النصاب ينسى أحيانا أني أكبره بعقدين على الأقل وأن ما تعلمه أثناء عمله في حكومته معروف لدى العامة بالضرورة، وينسي أيضا أني خابر ما يقوم به من

نصب وشغل الورقات الثلاث، وبالطبع سيحاول ضم الفتى إلى زمرته المأفونة، وجماعته المشؤومة، ليعلمه أصول صنعة النصب والسرقة. أتاني بالأمس باسما ووددت لو أني طرقت رأسه الصلعاء في الجدار، ولكن الملعون أثار اهتمامي وأجبرني على الاستماع له عندما قال الفتى أتى لكتابة تقرير عن المكتبة! ولا شك في أن هذا أمر جلل، أنا متأكد أن الكثيرين أتوا قبلا ليدبجوا تقارير عن المكان، ولكنها سابقة أن يخبرني النصاب بذلك ونبرة صوته تنبيء بسر خطير.

التاكسي يمشي ببطء كالسلحفاة، ألقى السائق المفوه أمامي مرافعة عصماء، يشتكي فيها من هم الدنيا وكثرة الخطوب وقلة الرزق، كعادة السائقين إذا ما استثارهم شخص، ألقوا ما في جعباهم من شكاوى واعتراضات. وآه إذا اكتشف الرجل أن أعمارنا متقاربة، ساعتها يبدأ في سرد شديد الإملال لذكرياته، ويبدأ في بث حنينه المرضي للماضي، أحدهم تذكر بحنين أيام قيادته لحنطوره القديم، أمرته بالتوقف فورا وترجلت مهرولا من العربة، فلا صبر لي على عربجي أصاب قدرا من المال وابتاع تاكسي ليعذب الناس بذكرياته.

وصلت وقد أصابني حضرة المحامي – السائق بالصداع، وقفت دقائق قليلة وأنا أحاول الإفاقة مما أصابني من ذهول بسبب إلحاحه وسماجته، أنا شخص لا أستطيع إغلاق أذني، وكيف أغلقها ولم

يُخلق لها صمام أو مصراع؟ فهي مفتوحة على الدوام، أسمع بها ما شئت وما كرهت، وأنا رغما عني لا أستطيع سوى الإنصات، فكيف أسمع شيئا ولا أنصت إليه؟ صاحب البالين كاذب لا محالة، اليوم قررت أن أستأجر سائقاً أبكماً رأيت السيد المدير يفكر في طريقة جديدة لينصب على أحدهم، كان مستغرقا في تفكيره وتدبيره عندما سألته عن القادم الجديد، أحَضَر اليوم أيضا؟ أجابني بالإيجاب، أخذت أعد العدة لسبر أغواره.

شاهر

صباحٌ لطيف! أنظر من خلال الشباك إلى الفيلا المجاورة، الفيلا تحولت إلى حضانة أطفال منذ عدة أعوام. الأطفال يلعبون مع المربيات، أصواتهم تتعالى بالصراخ والصياح، محاولين ترديد الأغاني، بينما حركات الأيدي الصغيرة غامضة، لا أعلم ما المقصود برفع الكف وإدارته في الهواء، وداع أم نعت بالجنون أم تقليد لراقصة؟

اليوم راحة، قررت ذلك بالأمس وأنا على السرير أتأهب للنوم، التقطت رواية بشكل عشوائي ثم فتحتها من المنتصف وبدأت القراءة، قال لي أحد أصدقائي أن وجهي يوحي بالغباء عندما أفعل ذلك، أي عندما أبدأ قراءة الكتاب من منتصفه، تذكرت وجهي

الموحي بالغباء وأجلت القراءة حتى أعود، الآن الرواية على السرير بعدما قرأت صفحات قليلة منها.

أفكر الآن في الذهاب للعمل، استيقظت منذ ساعة، ومللت البيت الفارغ، أجهز دفتراً لكتابة الملاحظات وقلماً وأضعهما في الحقيبة الجلدية. أفتح ملف المكتبة، في ثلثه الأول أرى صورة فاتورة، اكتشف أن الخزائن تم توريدها من محل خريستو للأثاث بباب اللوق، ثمن الخزانة كان اثني عشر جنيها، قرأت بعدها بعدة صفحات أن احمد محمد فرغلي تاجر ادوات الكهربائيه وادوات صحيه وحدايد ولوازم العمارات – هكذا بلا همزات أو نقاط على التاء المربوطة – هو من ورَّد الأدوات الصحية، كالمواسير والمشتركات والكيعان والحنفيات. فاتورة تحوي الأسعار، الأعداد مكتوبة بقلم حبر أزرق عريض، كأنه ريشة خطاط. ضاقت الفاتورة فكتب: ٣٢ حنفية نيكل قلاب في الفراغ الأبيض أسفل جدول الفاتورة.

يقولون أن الناس ارتابوا في الصنابير والمواسير عندما ركبتها الحكومة لأول مرة، ظنوا أنها حرام، ومن ثم فالشرب منها والوضوء حرامٌ بالتبعية، فتجنبها الناس واعتمدوا على السقايين. كانوا يحرصون على أن يأتي السقا بالماء من النيل، وليس من الصنابير والمواسير التي أخذت الحكومة تركبها في كل حي من القاهرة، حتى اجتمع علماء المذهب الحنفي وتدارسوا الأمر، وانتهوا إلى أن الصنابير ليست

حراما، بل حلال حلال، الحنفية حللوا الصنابير، فأسماها الناس: "حنفية" أفتح الحنفية و أنا أدعو الله أن يرحم الحنفي صاحب الحنفية، ثم أدعو الله أن يحرق من يرمي بالكلور بلا ضابط في مياة الحنفية اليوم، الرائحة النفاذة لا تطاق؛ أغسل وجهي بسرعة كاتما أنفاسي.

لن أفطر اليوم في البيت، سأنزل على مهل وأذهب إلى عملي متأخرا، سآكل في الطريق من عربة فول، ذلك الفول الضخم الحبة، صعب الهضم، مسمار البطن، صانع الرجولة ورُكن الجلد، مع بصل بلدي صغير، حتما سيرموني خارج المكتبة نتيجة فعل كهذا.

في الملف مقال من جريدة قديمة، تظهر اللغة فخمة بمحسن بديعي وإطناب لا مجال له اليوم، أقرأ السطور الأولى لأدرك أن المقال يحكي قصة نشأة المكتبة.

أحاديث مع الخاملين

شاءت الأقدار أن أراها وهي جالسة على رصيف الشارع تبيع الذرة المشوية، وقد عزمت على أن أخالف المألوف وأنقل لكم ما يدور في خلدها، إذ أننا اعتدنا نحن معشر الصحفيين والمحررين أن نورد لكم أخبار العظماء وعلية القوم، وكانت تلبس أسمالاً مهلهلةً، تشي بفقر مدقع ولو أنه فقر المتعففين، فلم تمش تلك المرأة في الشوارع طالبة عطف وإحسان المارة، تارة يكرمونها ومرات يزجرونها، وقد حادثتها لأني رأيت فيها مادة صحفية مثيرة. ودار الحديث بيني وبينها بعدما أوصيتها بشواء "كوز" من الذرة على مهل، فأخذت تهوي على الفحم بريشتها، كما يهوى العازف على أوتار العود بريشته، وقالت لي دعك مني فأنا كعشرات البسطاء في القطر المصري، ولست بصاحبة معجزات خوارقية قد تثير شهية القراء، ولكني سأحكي لك قصة حب عظيمة، بطلاها على طرفي نقيض، فالبطل من أعيان الغربية، والبطلة فتاة بسيطة متواضعة من الإسكندرية، جمع بينهما حب الأدب والشعر، وقد كان أول لقياهما معركة شعرية انتصر فيها البطل، أو أن البطلة تنازلت له عن قصب السبق مع أنها كانت تحوزه، وكأنها علمت خبره وما تحمله الأقدار لها على يديه... وبكرور الأيام، اقترب الرجل من الفتاة وصار

بينهما ما يصير بين المحبين من شوق ولهفة وسهر وقلق، وقد كان أصلها البسيط عائقا في طريقهما المفروش بالورد، وذلك لأن والد البطل قد انتظر منه أن يعلن خطبته بابنة قريب غني، أو سياسي شهير، أو عظيم من عظماء البلاد. فاحتال الرجل على أبيه حتى يبارك الزواج، وكان لعلمه بخبايا نفس أبيه أبلغ الأثر، فدعا الفتاة إلى القصر ذات ليلة، وكانت بما لها من لباس بسيط وهيئة متواضعة وجواهر معدومة أثر غير محبب في نفوس الحاضرين من عظماء ووجهاء، ولكن الرجل بذكائه أعلن أنها ستلقي قصيدة من نظمها، وهي قصيدة جديدة كل الجدة، ذات أثر طيب في النفوس، فاندهش الحاضرون من جرأة الفتاة التي تدعي نظم الشعر في حضرتهم، وبينهم شاعران مشهوران عظيمان، ولكن الفتاة لم تتوان عن التقدم نحو بهو القصر، ووقفت بقامتها الفارعة تلقي بصوت شجاع غير هياب، لكنه حنون، حريص، قصيدتها الجديدة، ولأن معظم الحاضرين كانوا من المنافقين الجاهلين بأصول الشعر والأدب، فقد ظلوا على صمتهم وجمودهم حتى بعدما انتهت الفتاة من إلقاء نظمها، وأدرك الأب ما لها من بلاغة وطلاوة، وانتظر أن يتحرك أحد المدعوين فيمدح الشاعرة، وراقبهم بعين التفحص والخبرة، ثم أرسل ناظريه إلى أحمد بك شوقي متسائلا، فقام شوقي بك من مكانه وقد كان يجلس منهم مجلس الملك من رعاياه، وتقدم من الفتاة، ثم رفع يدها الرقيقة ولثمها، وقال بصوته الفاخر   إن الغادة الواقفة أمامهم هذه الليلة لمن

أشعر من عرفهم في حياته، وانطلق المنافقون والمدعون يهللون ويصفقون بغير علم ولا دراية، وهكذا علم الأب مدى جهلهم وهم الأغنياء، ومدى علم الفتاة الرقيقة المتواضعة الحال. وفي اليوم التالي أنبأ الفتى أباه بما اعتزم عليه من قبل، وأعلمه بأن إطلالة كوكب عليهم بالأمس كانت طريقته في تعريفه بها، وأنه كان يشفق من غضب أبيه إذا علم أنه سيتزوج من فتاة بسيطة، فضحك الأب، وتذكر أم ولده الفرنسية البسيطة، وقال من شابه أباه فما ظلم، وبارك الزواج السعيد.

ثم كان من الفتاة ما أكبرها في نفسي الفتى وأبيه، فقد طلبت منه أن يبني مكتبة باسمها، وأن يهب المكتبة كتباً لتصير قبلة لراغبي العلم والثقافة، وأنها لن ترض بديلا عن طلبها ذلك، وهي لا تلتفت أو تهتم بما تهتم به قريناتها من الملبس أو تصفيفات الشعر، وهي لا تهتم بالمال وجمعه وكنزه، وإنما عز مناها أن تجد الناس حولها وقد حسنت أخلاقهم بفعل العلم والأدب، وتجملت حياتهم بفعل الحوار والنقد الهادف. ولما كان الفتى قد أجاب كل ما طلبته قبل ذلك، فكيف له أن يؤخر ما يوافق هواه ويجاري تفكيره، فلم يتوان عن تحقيق حلمها الأثير، فابتاع لها هذا العقار الذي تراه خلفي، وأهداها طرفا من مكتبته الخاصة العزيزة على قلبه، وأسماها باسمها كما طلبت: مكتبة كوكب عنبر.

ولما أنهت تلك الخاملة البسيطة حديثها أخذني العجب، فقد استحال الحديث إلى حديث عن العظماء والسادة رغما عني، فكيف أصف إذن فعل تلك السيدة العظيمة كوكب عنبر ؟"

إذن فالمرأة التي تشوي الذرة كانت حاضرةً في الحفل، نعم أتفهم ذلك تماما، حضرب وجلست في أحد أركان القصر والضوء مسلط عليها لتشوي للضيوف الماسيين ما يريدون من ذرة، أوه فانتاستيك!، وربما أهدى صاحب القصر لها جائزة الكوز الذهبي في نهاية الحفل. فالرجل مضياف كريم، يقيم الحفلات ويرضى أن يتزوج ولده بفتاة لم يعرف عنها شيئا، أما جملة "و تذكّر أم ولده الفرنسية البسيطة" فهي دلالة قاطعة على قدرة امرأة الذرة على قراءة الأفكار، إذن فالمكتبة أنشئت بسبب الحب، أنا أعرف أن أحدهم بنى ضريحا لزوجته، أما أن يبني مكتبة فهذا أمر جديد، أقصد قديم، لطيف أن أرى امرأة تظهر في المكتبة، حتى لو كان ذلك منذ سبعين عاما، حتى لو كانت ميتة وتبقى ذكراها من خلال مقال في صحيفة، وقطعة رخام على سور المكتبة، فالأمر غير محتمل على الإطلاق مع كل الرجال المحيطين بي حاليا.

أصبحت المكتبة مقر عملي، وستستمر كذلك لشهر تقريباً، لن أختلس النظرات للفتيات على المكاتب المجاورة لي. أنا أتابع القبيحات والجميلات، لا أفرق بينهن، حتى الشمطاوات مقمعات

البامية – هذه مبالغة، مُنِعَ تقميع البامية منذ عهد بعيد – أستمتع بالنظر إليهن مسترجعاً جمالاً غائباً، يظهر من خلال الأعين الملونة والأنوف الدقيقة. أحيانا أعتقد أن الحكومة تقوم بتشغيل النساء لتلطيف الجو داخل المكاتب؛ أيضا لمنع الرجال من إطلاق الشخرات والسباب، بالإضافة إلى مساهمة الدولة الهامة في ترتيب زيجات للراغبين. فرصة لقاء شابين كاملين متاحة بنسب كبيرة بين أروقة "الدواوين الحكومية"، بمناسبة لغة الصحافة في الثلاثينيات.

ماتت كوكب عنبر على الأغلب ومات أولادها، وأيضا ماتوا وهم لا يجدون ما يأكلونه، بعدما بذروا أموالهم على المكتبة والكتب، بل الأغلب أن حكومة الثورة طردتهم من البلاد، أو أنها أممت أملاكهم، وماتت هي من فرط حزنها على ضياع الممتلكات، في الأصل تنتهي قصص الحب نهايات مأساوية، في الأصل أيضا المرأة موجودة في كل مكان، في الوزارة، في المكتبة، في الفليم، وبالتأكيد في الرواية.

زاد اليوم عدد الزوار عن العشرة، يتحركون ويثيرون ضجة بسيطة، والأمين بالأسفل اطمأن بعدما لم أطلب منه مراجعة أي حسابات، والمدير أصبح صديقي فحياني صباحاً بمودة. الزوار يتحدثون على مهل، ألاحظ مرة أخرى الرجل الستيني، هو أكثرهم ظهوراً وحركة، يبحث عن الكتب ويفتش بين الأرفف، يتكلم همساً

مع أحدهم، ويتابع الكلام معه، بينما أمر من جانبهما، لا يلتفت الستيني إليّ محدقا كما حدث بالأمس.

سأتعرف إلى زوار المكتبة اليوم، رأيهم مهم ولا غنى عن سؤالهم بعض الأسئلة، الزوار هم المستفيدون الوحيدون من المكتبة، وهم أدرى مني بمشاكلها. ألاحظ أحدهم أخيرا، أتعرف على ملامحه، الدكتور علي أحمد، الناقد والمترجم الشهير، يعرفه غالبية الناس بترجماته، بينما يعرفه القلة بتنظيراته الكثيرة وآرائه التي اجتمعت في النهاية لتشكل نظريته في الترجمة. الطريف أنه لا يتبع نظريته تلك حينما يترجم، بل يترجم بلا أساس أو مبدأ، فقط ينقل المعاني من لغة إلى أخرى – عادة من الفرنسية إلى العربية – هل سأحادثه يوما؟ عرفت مخبأ علي أحمد أخيرا.

يتحدثان معا، دكتور علي والآخر الستيني، يهمسان بينما يلحظ الآخر وجودي ويتابعني بعينيه، يريد فتح حوار معي ولا يستطيع، فلا سابق معرفةٍ بيننا، ولا أتيح له فرصة للكلام. اليوم أحاول التركيز، لم أقم بأيّ تقييم للمكان و لم أتجول بداخله تقريبا، كيف سأصف المبنى ؟ كيف سأكتب التقرير؟ هل أستسلم وأكتب ورقتين أوصي فيهما بالتخلي عن المكان، أم سأعاند وأكتب تقريراً وافياً؟ أتذكر ملف المكتبة الذي نسخته، لم أطلع على كل محتوياته بعد، أفكر في حل مريح للغاية، سأجمع أوراقا من الملف وأكتب من

خلالها تقريري، كما يفعل الأستاذ عبد الرحمن، المهم في التقرير الصنعة واللغة المضبوطة، أما المحتوى فلن يراجعه أحد، أنا موظف حكومي ذو مصداقية، وثقة الحكومة بي عالية لدرجة أنها تحيل أمر هدم أحد مبانيها لي شخصيا، أنا من أحلل وأقرر، لن يشغلني التقرير بعد الآن، ربما سأرتاح في بيتي منتظرا اليوم الأخير في المهمة، سأعود للمكتب حاملاً الأوراق لمديري، وربما أبالغ في السخرية فأصل إلى نتيجة مخالفة للمتوقع، الإبقاء على المكتبة وتغيير مسار خط المترو، أو نقل المحطة عدة أمتار، أتخيله على كرسيه مصدوما مما كتبته، و عينيه تتنقلان بين السطور، ثم يرفع رأسه ويقول: أكتب غيره، كأنه يقول: إلعب غيرها.

ربما سأبقى هنا في المكتبة لأقرأ، لا أستريح لنظرات الزملاء في المكتب، أنا نبت شيطاني، أقرأ كتباً سميكة وألبس نظارةً سميكة، وأقرأ صحفاً ذات أسماء مريبة، كالبديل والدستور والمصري اليوم، بينما هم لا يعرفون من صحف "المعارضة" سوى الوفد، و"المتفتح" منهم من يقرأه، الباقي يقرأون الأهرام، والجمهورية، فخورين بقراءة مقال رئيس التحرير وصفحتي الرياضة والوفيات، والأمهات يجتهدن في جمع ملاحق الجمهورية التعليمية، البرشامة الحكومية المجانية. وآه عندما سمع أحدهم بأن صحيفة البديل يسارية، يا خبر! أما زال هناك يسار في مصر؟ ألم يغلقوا الاتحاد الاشتراكي؟ وسألني أحدهم بجدية،

ألهذا عنوان الجريدة مكتوب باللون الأحمر؟ مع الوقت، قلت التساؤلات كثيراً، وظهرت أشياء أخرى تشغلهم عني، كالفتاة الجديدة القبيحة التى تم تعيينها، والفتاة الأخرى الجميلة التي تم تعيينها أيضا، ونشوب الصراع بين عواجيز المكتب على الفتاتين، المهم أنهم وجدوا ما ينشغلون به عني.

أقف وحدي بين الخزائن، أحاول فهم طريقة ترتيب الكتب. لابد من ترتيب معين، فالعشوائية التي أراها أمامي يستحيل معها البحث عن كتاب، وبالطبع لا يمكن العثور على الكتب التي تندرج تحت تصنيف معين، أهذه هي الفوضى الخلاقة؟ أشعر به يتقدم من خلفي، ألتفت فأجده يمر بين الخزائن مقترباً مني، ويده تمر على صف الكتب، تلمس أطراف أصابعه الكتب، وكأنه يطمئن عليها، أي وله هذا؟!

بدأ في الحديث

قد تبدو المكتبة غير مصنفة أو عشوائية، لكن إذا لاحظت، فكل كتاب يسبقه آخر ويلحقه ثالث، نسميهما السابق واللاحق، إذا فتحت أول صفحة من أي كتاب ستجد اسم السابق، وعلى الصفحة الأخيرة ستجد اسم اللاحق، وهكذا فمكان الكتاب لا يتغير مطلقاً، إلا إذا رفعه أحدهم من على الرف وأعاده إلى غير مكانه، ساعتها لن

تجد الكتاب مطلقاً، سيختفي الكتاب ويتغير ترتيبه، وسيتغير ترتيب الكتب أيضاً في مكان آخر، لذلك فهناك قاعدة غير مكتوبة هنا، إذا رفعت كتاباً من على الرف، عليك إعادته إلى مكانه الأصلي، يساعدك في ذلك اسمي السابق واللاحق، عليك قراءة كتاب واحد كل مرة، رفع كتاب واحد من الرف في كل مرة، قراءة كتابين قد تنتهي بك إلى تبديل موضعيهما..

لاأعرف كيف بدأ معي حديثه بهذه الطريقة؟ يبدو أن كل من يدخل المكتبة يتساءل عن ترتيب الكتب، وعن تصنيفها، ويبدو أنه توقع مني سؤالاً عن ترتيب الكتب، لكن إجابته كانت محيرة للغاية، مازال سبب عدم تصنيف الكتب مبهماً، فهي مرتبة فعلاً بالطريقة الغريبة التي وصفها، ولكني لا أفهم كيف يمكنني الحصول على كتاب معين؟ يتابع الحديث ويعرفني بنفسه، قائلا: د سيد الأهل، يخطيء الآباء أحيانا فيطلقون على أبنائهم أسماء كهذه، متخيلين أن السيد الواقف أمامي سيصبح سيد أهله في يوم ما. أمد يدي فيسلم علي بحرارة، يعرف أني مندوب من الهيئة، أتيت لسبب ما، يسألني في جمل غير كاملة عن سبب مجيئي، بطريقة غير مباشرة لمعرفة الحقيقة، وعندما أتراجع عن الإجابة وأصمت مبتسما، يدرك أنه تجاوز الحد قليلا، فيغير الموضوع ويشير إلى خارج الغرفة، قائلاً إنه سيريني المكتبة، جولة حقيقية لن يقوم بها المدير أو الأمين أو أي شخص

آخر، فهو يدور بين الكتب منذ ثلاثين عاما، يحفظ أماكن الكتب، يعيد ترتيب الكتب إذا أخطأ أحدهم وغير مكانها، وأحيانا وبدافع الحب، يمسح التراب عن الأرفف وعن الكتب.

يحكي لي أن الزوار في البداية لا يهتدون إلى طريقة محددة لإيجاد ما يريدون قراءته، الكثيرون يصابون بالإحباط ويملون بعد أول زيارة، وبعضهم يستمر تائهاً بين الغرف والطوابق حتى يمل أيضاً ويترك المكان، قلةٌ فقط تستمر في المجيء، وتبدأ في حفظ أماكن الكتب، بعضهم يحفظ أماكن الكتب في غرفة واحدة، أوشقة واحدة، يخبرني أن غرفة واحدة كافية جدا، خليط التصنيفات في أي غرفة يرضي أي شخص، فالغرفة الواحدة قد تحوي ألف كتاب، يقول لي أنه لم يقرأ في حياته كلها ألف كتاب، فما الداعي للإلمام بالمكتبة كلها إذن؟ يقودني عبر الغرف ويستمر في الشرح، لا أملك إلا الاستماع والتركيز، فلا أريد أن أنسى أياً من كلماته، كلما تحركنا عبر المكان يزدادُ حماسة، يتكلم عن محتويات المكتبة، وبين حين وآخر يتوقف ليمسك كتابا ويضعه أمام عيني، شارحا لي كيف دخل المكتبة؛ من اشتراه، أو تبرع به، وفي أي سنة دخل إلى المكان، لا يذكر "المكتبة" كثيراً أثناء حديثه، يقول "المكان" نحن نعتاد على البيت أو الدكان، ليتحول بعد عدة سنين إلى مكان، نسهب في وصفه والتعلق به، تبدو لنا عيوبه مزايا، وهفوات صانعيه محببة للعين، ويتحول إلى "مكان"

نحن له حينما نبتعد، ونعود إليه إذا ما شعرنا بالضيق أو الكرب. يتجول الدكتور سيد بين الطوابق، يلمس الدرابزين الحديدي، يحيطه بكامل كفه، يحتويه، الإطار النحاسي اللامع يختفي في قبضته، بينما قدمه تدب على رخام الدرجات، ولا يحتك نعله بالدرج، لا يجر قدمه خلفه كما يفعل الشيوخ إذا ساروا، بل يرفع قدمه بالكامل ويضعها بنعومة على الأرض، كأنه يمشي على الماء، أو كأن قدميه قد تخدشان البلاط من تحتهما، يلمس الجدران بحرص خوفا من أن تؤثر يده في الطلاء، أو أن ثقل يده قد يصيبها بشرخ، يقول أن المكتبة لا تحوي أي سجلات، لا بطاقات وصف للكتب، لا فهارس تحوي أسماء الكتب ومؤلفيها، ثم إن عدد الكتب غير معروف أيضا، لا يوجد سجل بأسماء الزائرين، لم يتم طبع بطاقات تعريفية لهم، لم يطلب أحد منهم صوراً شخصية، بل لا أحد يعرف أسماء معظم الزوار. يخبرني أني سأذهل عندما أسمع أسماء بعض من زاروا المكان، كتاب وصحفيون ومترجمون قدموا من سوريا والعراق خصيصا لزيارة المكان، آخرون من إيران وتركيا ودول أخرى بعيدة، كثيرون منهم يجهلون العربية والإنجليزية، كلهم كانوا يعلمون مكان المكتبة، وكلهم زاروها بحثاً عن كتاب مكتوب بلغتهم.

الجولة مرهقة، كمية معلومات هائلة ينقلها لي، لا أستطيع اختزان كل ما يقول، أبدأ في التفكير في عملي ومهمتي، كنت أود

الاستفادة منه، لكنه ثرثار ويحكي قصصا تقترب من حد الخرافة، لكنه مع ذلك ممتع! لا أعلم ما مغزى كل هذا الحديث عن زوار المكتبة وانبهاري المتوقع بأسمائهم، لا سبب أيضا لإيراد بعض الأسماء بالفرنسية والإسبانية، بالتأكيد لا أعرف الشاعر الإسباني الذي كتب ديواناً واحداً، وزار المكتبة مهديا إحدى النسخ لها، ثم انتحر من فوره. كنت أبطئ من خطواتي كي يدرك هو أني مللت، يتوقف تماماً ليحاول إنهاء الحديث، قائلا أن متعة المكان في كتبه وليست في الحديث بين جدرانه، وقال لي أنه سيبقى في المكتبة، وهو يرحب بي في أي وقت...

سيد

بعد وصولي اليوم إلى المكتبة، قابلت علي العبيط، السيد الأستاذ الدكتور علي أحمد، الأستاذ في كلية الألسن، العظيم ذا العظمة، صاحب الألف ترجمة ورأس حربة المترجمين العرب. المظاهر خادعة لا مراء، فالرجل لا يفقه علم التدريس، فاسد إذا حاول شرح مصطلح أو أراد إيضاح معنى، خائب لا يستطيع الرد فوراً على أسئلة الطلبة، فهو من الجيل الذي يلقي خطاباً على أنه محاضرة، ويتصور أن الإذاعة المصرية تسجل محاضراته المهيبة بغرض إذاعتها لاحقا في برنامجه الشهير حديث الجمعة منتصف الليل.

وما يعيب محاضراته تنوع محير في الموضوعات، واستطراد مشتت للأذهان، وجمل عديدة بلغات متفرقة يحشوها داخل نص المحاضرة حشوا، إلا أنه يحفظها عن ظهر قلب، فهو يتلوها يوما بعد يوم، وهي على نفس حالها من الطول والغثاثة وقلة الفائدة، و لم يغير فيها إلا النزر اليسير، بل لم يعدل فيها إلا ما اضطره إليه النسيان أو الخطأ، ذلك الخطأ الناتج عن دوار وجفاف سكر الليلة السابقة. وهو سكير أصيل، فهو أحد اللذين شربوا المحيط، ولا عيب للخمر في كل الأحوال، فمحمد راجح أحد أساتذته العظام كان قبل الدخول إلى المحاضرة يعد العدة لإلقائها، وذلك بالوقوف خلف باب القاعة، وتلاوة أبيات من الشعر الجاهلي، مع أخذ رشفة أو اثنتين من زجاجة صغيرة يبقيها في جيبه، كان – طيب الله ثراه - يسميها بطحة، وقد كان لخمر بطحته أقوى الأثر على لسانه وفصاحته واتقاد ذهنه، وكان بعد ذلك يدخل القاعة هادئاً، فيتحول فور وقوفه أمام اللوح إلى أسد هصور، فلا يهابُ السوقة من الطلبة، ولا يصيبه السقم من الفاشلين منهم، بل والأكثر من ذلك، كان يستمتع بحوار المتوقدين ذهنيا من طلبته، أو العائِّين من بطحاقم مثله، ولو كان يعلم ما سيؤول إليه حال تلميذه لطرده من الجامعة.

حدثني الدكتور علي حديث العالم بالأمور، أخذ يهذي بكلام يعني أنه يحذرني من بعض المحيطين بنا هذا الفتى الجديد الذي ظهر في

المكتبة منذ يومين، قال الولد لابد وأنه يقصد المكتبة بسوء، يصول ويجول فيها بلا رقيب، يتفحص الكتب والدوريات ولو أراد لاطلع على الأوراق المخبوءة، والله نطقها، قال "مخبوءة" السيد علي كعب الغزال ما زال يؤمن بأن هناك أوراقا تتعلق بالمكتبة، "مخبوءة" في مكان ما هنا، من يجد هذه الأوراق، ستكون مفتاحه لامتلاك المكتبة بأسرها. ألا يكفي ما بالمكتبة حتى يروج هذا لأساطير أخرى؟ وهكذا أصبح الفتى الجديد "ولدا"، وأصبح متآمرا على المكتبة والكتب والزوار؛ لأن السيد الأستاذ الدكتور علي أحمد يخاف على المكتبة وكأنها ملك له؛ ولأنه يعتبر نفسه مسؤولاً شخصيا على المكتبة و"ما تحتويه" فقد حذرني من "الولد" الجديد، وأضاف وأسهب في وصف نظارته النافذة وعينيه الشكاكتين، ويده التي تندب بين الكتب، ليخرج منها ما شاء يقلب فيه ويقرأه، وكأن الفتى جاسوس لابد من إيقافه وطرده خارج البلاد.

أخبرت علي منذ عدة سنوات بأن هناك وثائق متعلقة بملكية المكتبة موجودة بين كتبها، لا أعرف كيف استطعت إقناعه بأن من يحصل على تلك الوثائق سيتمكن من إثبات ملكيته للمكتبة له وحده دوناً عن الناس جميعاً، ضارباً عُرض الحائط قوانين الأوقاف وأحقية الورثة في الوقف، هذا لو بقى ورثة لمؤسس المكتبة، ولو استطاعوا إثبات صلتهم بالمؤسس، أيضا لا أفهم كيف نسي علي أن المكتبة

وقفٌ ولا يد لأي مخلوق عليها الآن، وفكرة تملك المكتبة مستحيلة قانونا، ولكن خيال علي وإلحاحي أقنعاه بذلك. أخذت أحكي له عن الأوراق والموظف العجوز في الأوقاف الذي أخبرني بالسر قبل موته، كانت الكذبة وليدة اللحظة؛ لذلك اجتهدت في إشغال رأسه بهراء آخر عن مؤسس المكتبة الغني، ريثما أفكر في حبكة للكذبة الجديدة. وهكذا اخذت أحكي طرفا من الكذبة وأجادله بحادثة صغيرة عن مؤسس المكتبة، كل هذا ورأسي يعمل لأبني كذبتي كما يفعل المعمار، ظل علي بعد ذلك مؤمنا بالكذبة حتى الآن، كان يتفقد الكتب مقلباً أوراقها ورقة ورقة، وكلما رأى خريطة أو صورة وثيقة أو ورقة بمقاس مخالف لمقاس باقي أوراق الكتاب، أخذ يتأملها ويقرأها بعناية، ولما يدرك أن لا علاقة لتلك الورقة بالمكتبة، يعاود الكرة ويفتح كتابا آخر ليبحث. كانت تلك الأوراق دفعات أمل نحو الوثيقة الجهنمية التي ستضع المكتبة تحت تصرفه. وإمعاناً في التشفي، كنت أساعده في البحث أحيانا في أيام المزاج الرائق، الفراغ يقتل، ولا بأس من تقليب بضعة الأوراق، وعلى كل حال، كنا نقف ظهراً لظهر، هو يبحث عن ورقة وهمية، وأنا أبحث عن كتاب قديم.

أذكر الأيام التي كان يجد هو فيها كتاباً منسياً، أو ترجمةً عربيةً لديوان شعر قديم، أو ترجمةً إنجليزيةً لرواية عربية مغمورة، فيقف قليلاً أمام الرف وهو يقرأ الصفحات الأولى، ثم يسترخي على أحد

المقاعد مكملاً القراءة، وبين كل عدة صفحات، ينبهني إلى تعبير لطيف أو جملة بليغة، أو حتى كلمة عربية ممتعة، متأملاً اجتهاد المترجم، بل إنه أحيانا ما رفع يديه داعياً للمترجم بالصحة وطول العمر، ثم ينظر إليّ ونضحك على دعائه المزعوم.

ولأنه رجل طموح دؤوب، ظل يبحث عن الأوراق داخل المكتبة بهمة ونشاط أحسده عليهما، وبمواظبة كمواظبة الطالب النجيب على استذكار دروسه، وتفان كتفان اللص في تحضيره لسرقاته، وياله من تطابق، فهو يتفانى لسرقة الأوراق كي تمكنه بعد ذلك من سرقة المكتبة بما حوت، ولا ريب أن حكايتي المختلقة تلك قد ألبسته ثوب الباحث عن قضية، ذلك الذي أضاع حياته في البحث عن وثائق ومستندات وأوراق؛ لنصرة هدف يحسبه هو سامياً، بينما هو هدف وضيع مثل الساعي إليه. وقد وُفقت إلى الاحتفاظ بالسر حتى اليوم، ويا لفرحي عندما رأيته قلقا وجلا، خائفا من غدر الدهر وتقلب الأحوال وسوء المآل، وكيف أن "الولد قد يعثر مصادفة على الأوراق فيضيع حقه – أصبح يعتبر أن الأوراق من حقه – هو الذي أضاع عمره في البحث عنها، وما فات على هذه الخدعة سوى سنتين فقط، وهي أطول مدة زمنية استغرقتها كذبة كذبتها في حياتي، تطول مدتها من شدة غباء المكذوب عليه، وحسن صمته وعدم بوحه بما سمعه من كذب وادعاء، أبقتك الآلهة ذخرا لنا يا علي.

ولكني أخذت أطمئنه، وأنصحه بعدما كان هو الناصح لي، بأن يأخذ حذره، ويمد بصره، ويعد العدة لبذل مجهود أكبر لكي يحصل هو على "حقه" وأخبرته بأني سأراقب الفتى من أجله وأني سأصبُّ عليه لعناتي حتى يرحل من هنا، بل ربما أتحرش به حتى يمضي غير مأسوف عليه، وقلت له: ليتركني معه أنتقي من الكلام ما طاب لفظه وخبث معناه، وإني سأخاطبه بلهجة المحذر المنذر أولا، فإذا استجاب وانسحب كان بها، وإذا لم يفعل، فلا مفر من الحرب.

شاهر

حان وقت العمل! أسجل ملاحظاتي في الدفتر الصغير، أحاول أن أصف المكان من الداخل: "خزائن خشبية بارتفاع ستة أرفف، بين كل رف والآخر ثلاثون سنتيمترا، والخزانة بعمق عشرين سنتيمترا. كل غرفة تحوي عدد ٥ خزائن الصبر! سنبدأ أخيرا في كتابة التقرير؛ "أرضيات الغرف مكونة من ألواح الخشب الموسكي، والشبابيك خشب موسكي مدهون لاكيه أبيض بالطبع، فلو لم أذكر لون خشب الشباك سيكون تقريري ناقصا، "الغرفة الواحدة تحوي تقريبا ألف كتاب"، كلام د سيد غريب؛ عدم وجود سجلات للكتب أمر غريب، نحن نتعامل مع الكتب على أنها عهدة، يتسلمها

المدير ويوقع، ثم يتسلمها الأمين ويوقع، وبذلك يصبحان مسؤولين عن أي مصيبة قد تحدث للكتب، ولا مشكلة في تمزيق غلاف كتاب أو ضياع بعض صفحاته، المهم أن تبقى "جثة" الكتاب موجودة.
كيف إذن استلم المدير عهدة كتب غير مسجلة ومجهولة العدد ؟
"يوجد بكل غرفة عدد ٢ شباك كبير"، أظن أنه من السهل سرقة أي كتاب، إذا تجاوز الزائر عقبة وجود الأمين على الباب، لاسيما إذا كان الكتاب مغرياً بما فيه الكفاية، فلا رادع. أمسك كتاباً بشكل عشوائي، "فنون عصر النهضة"، لا توجد أرقام ملصقة على كعب الكتاب، لا يوجد ختم للمكتبة في أول صفحة، لا يوجد بطاقة وصف أو بطاقة استعارة، فقط اسمي السابق واللاحق، مسجلان بخطين مختلفين. "حالة الشبابيك والأبواب ممتازة، الخزائن الخشبية في حالة جيدة، الأرضيات الخشبية تحتاج إلى صيانة في أماكن متعددة"
سرقة كتاب من المكتبة أمر سهل بالتأكيد، فسرقة كتاب في أي مكتبة أو محل لبيع الكتب أمر سهل، ويشهد معرض الكتاب بمئات المطبوعات المختفية كل عام، الفارق هنا أن السرقة لن يتم اكتشافها.
"الغرفة بشكل عام في حالة جيدة، سأطلق على هذه الغرفة نموذجا وهو أفضل نموذج" فمع غياب سجلات بأسماء الكتب، يستحيل جرد المكتبة، ولن يكتشف أحد اختفاء عدد قليل من الكتب. أتردد في إعادة الكتاب إلى مكانه، أقاوم رغبتي في أخذ الكتاب، ربما سألتقط

كتاباً آخراً أكثر تميزاً. كتب ثروت عكاشة منتشرة ولا سبب حقيقي لسرقتها، أدقق النظر في الكتاب لأكتشف أنه مترجم عن أصل أجنبي، وليس من تأليف عكاشة، يذكرني الكتاب فعلاً بمؤلفات الرجل، الشروحات الطويلة والصور والرسومات الموصوفة جيداً، أدقق في إحدى الصور التي تشغل مساحة كبيرة من الصفحة، بورتريه لشخص ما، بلحية ضخمة كأنه سُني فرنساوي، تحت الصورة أقرأ الآتي :" طباعة نقشية، صورة شخصية ل إتيان دوليه، كانت الطباعة النقشية أسلوباً منتشراً لطبع صور الأعلام والصور على الورق، وانتشرت الطباعة النقشيَة بالتزامن مع انتشار الطباعة في القرنين السادس والسابع عشر، وإتيان دوليه عالم ومترجم فرنسي عاش في القرن السادس عشر، وحوكم دوليه عدة مرات بتهمة الإلحاد، وتمت إدانته في المحاكمة الثالثة، والسبب الحقيقي لإدانته هو ترجمته لسؤال استنكاري عن أفلاطون "و ماذا بعد الموت؟"، وأضاف دوليه جملة أخرى لتظهر استنكار أفلاطون وتبينه "لا شي على الإطلاق"، وانتهت كلية اللاهوت بعد قراءة جملة دوليه المضافة إلى الترجمة إلى أنه لا يؤمن بالحياة بعد الموت، وتم إعدامه حرقا، وهكذا اعتبر دوليه شهيدا للترجمة، بينما كانت طريقة الترجمة الحرة التي اتبعها في ترجمته لحوارات أفلاطون السبب الحقيقي في إدانته".

وأنا اعتقدت أن المنفلوطي كان فريداً من نوعه، هذا الرجل الذي أصر أيضاً على إضافة رأيه في ما يترجم. تم الإعلاء من قدر المنفلوطي كثيراً، الناس وقتها أعجبوا بإطنابه الفصيح، وإضافاته التي تشرح وتحلل شخصيات الأبطال، التي ربما أرادها المؤلف غامضة أو متروكة لخيال القاريء. أفلت المنفلوطي بتعريباته المشهورة، ربما لأنه كان ذكيا فأعلن تصرفه في الترجمة، أحرق شهيد الترجمة صاحب اللحية الضخمة لأنه أعترف أيضا بتصرفه، يكون رد فعل الناس أحياناً متطرفاً للغاية. المثير أن بعضهم اعتبره شهيداً، وشهيداً للترجمة أيضاً، لكن ما فعله من خيانة لا يغفرها مترجم عاقل هذه الأيام، غيَّر النص، بدل في أصله، شرح ما لم يشرحه المؤلف، أظهر المخفي، أضاف من أفكاره، حلل ما حُرم تحليله، أليست هذه خيانة للنص؟ ألا يجب إعدام هذا الرجل لتصرفه في مؤلفات أفلاطون بغير إرادة كاتبها؟ غباء محاكم التفتيش هذه المرة كان مفيداً، لابد أن المترجمين ارتعبوا وأخذوا يترجمون نصوصهم كلمة بكلمة بعد إعدام الرجل، أنا شخصيا بحاجة لمحكمة تفتيش لمترجمي أسماء الأفلام الأمريكية المعروضة في دور العرض المصرية، ولمترجمي الأفلام نفسها، مترجمي "تبا لك" و"اللعنة"، الأحكام المتطرفة مفيدة كثيراً في هذه الأحوال.

مازال النهار في أوله، أتأبط الكتاب ودفتري وأنزل لأجلس في المنور، أمر أثناء نزولي على أصدقائي الجدد، المدير والأمين، لم

يلتفتا لي؛ لأشعر كأني في بيتي أو كأني في بنسيون صغير لا يأبه فيه السكان لمن يمر أمامهم. أدخل المنور فتسرق الشجرة نظري مرة أخرى، وأجد د سيد جالساً محدقاً في الفراغ. سلمتُ عليه، لا مفر من لفت نظره لوجودي، فنحن وحدنا في المكان، يبدأ حديثه معي فوراً وبلا مقدمات، يسأل عن أحوالي ومهمتي، يبدو أنه اعتاذ الدخول في الموضوعات مباشرة، اختصاراً للوقت ؟ لا أعلم، أظن أنها من شيم الدكاتره العلماء، سألته عن تخصصه، وهنا تأكدت أنه ثرثار، حكى لي أنه كان ضابطاً في الجيش، خرج مبكراً لإصابة لحقت به في حرب ٧٣، ثم اختار طريق الدراسة الحرة، فدرس الموسيقى العربية والتاريخ الإسلامي وختم بالدكتوراه في علم التعمية، وطبعاً، وكأي دكتور فخور بشهادته، سألني إذا كنت أعلم ما علم التعمية، فأجبته كاذباً بالإيجاب، حاولت الهروب من سؤالٍ تال لإظهار جهلي بتخصصه، فبادرته بالسؤال المحرج لجميع المثقفين، ماذا تعمل؟ والحق أني رأيت أول مثقف يعترف بأنه ابن ذوات، وصاحب أموال وممتلكات تدر عليه دخلاً يبعده عن مذلة العمل، قالها لي بجرأة يُحسد عليها، وقرأ أفكاري فأخبرني أن مصر مليئة بالصيع الأغنياء أمثاله، ولكنهم لا يظهرون غناهم خوفا من طمع الغلابة فيهم.

بادرته بالإفصاح عن عملي بالهيئة والقسم، فأنا أحد هؤلاء "الصيع الأغنياء" الذين يُخفون غناهم خوفاً من طمع الغلابة والحسد

ومصلحة الضرائب. ابتدرته بالكلام، خير من صمتي الذي قد يوحي بانطباعات خاطئة، قال لي أنه يعلم طبيعة عملي، أخبره مدير المكتبة بذلك. وبدأ في وصلة سخرية ينتقد فيها الهيئة والوزارة والوزير والسرقات والاختلاسات التي يقوم بها الموظفون، بينما فئة الموظفين الغلابة "أمثالي يعلنون في كل مكان أن وزارة الأوقاف هي أغنى وزارة في البلد، ولا يستفيدون من وزارتهم الغنية سوى الانتساب إليها. يظن الدكتور أنه يقلب مواجعي ويتعاطف معي، وأنا سعيد تماما باستنتاجه الخاطيء بفقري وعوزي. حسناً، فالكل مستريحٌ الآن.

لاحظ الكتاب في يدي، أخبرني أن هذا الكتاب هو ما ترجمه ثروت عكاشة ونسبه إلى نفسه، فهو لم يؤلف كتابا في حياته، وإنما ترجم كل ما نشره. هل سيبدأ الرجل في انتقاد الجميع كما يفعل من في سنه؟ قال لي أن ثروت عكاشة أفلت بفعلته لأنه ترجم الكتب بتصرف، واختار بعض اللوحات و صور التماثيل الواردة في الأصل فقط ليضمنها كتبه، كان ينقل معلومات وحقائق، ويكتب تاريخاً ولا يكتب تحليلاً، لذلك كان من المستحيل اتهامه بالسرقة، كان يرشي القراء، فيدافع عن المسلمين والعرب إذا جاء ذكرهم في ما يكتب، أو إذا انتقدهم رسام أو شاعر أو مؤلف ما، هل يكتب الغرب عنا بصورة إيجابية؟ سيسأل القاريء نفسه، مستنتجاً في النهاية أن

الكتاب فعلاً من تأليف عكاشة، وأن الرجل أمين لا محالة. في النهاية ظلت كتب الرجل ملقاة في المكتبات حتى الآن، تبتاعها المكتبات العامة والمؤسسات التعليمية، غبي من يشتري كتابا لعكاشة بغرض قراءته، ربما يشتريه الشخص للتباهي؛ لإظهار مدى دسامة مكتبته الخاصة، لوضعه في صدر المكان وسماع تأوهات المعجبين والمتملقين. في النهاية — ود سيد محق تماماً في هذه النقطة - الرجل ممل إلى حد الموت.

يخبرني أن الكتاب ربما تبرع به شخص في التسعينيات، "هوجة الفنون العالمية" كما ٔأسماها، أحدهم يريد إثراء المكان بمؤلفات من هذا النوع، يأتي هو بالكتب وعلى الأمين ترتيبها، كل ما عليه رص الكتب، بلا تصنيف، فقط ترتب الكتب الجديدة بعد تلك الأقدم على الأرفف، يكتب بيده اسمي السابق واللاحق للحفاظ على ترتيب ثابت للكتب، ولا يضيع الأمين وقته في التصنيف و التبويب.

أفتح الصفحة الأولى من الكتـــاب، الآن فقط ومـــع كـــلام د سيد، ومع قراءة اسم السابق فهمت سبب الترتيب، يريدون الحفاظ على ترتيب زمني للكتب، سلسلة طويلة من المطبوعات مرتبة حسب تاريخ التبرع فقط، وغالباً ما ستكون الكتب الموجودة في أحد الغرف صادرة في مدد زمنية متقاربة، كلها صدرت في التسعينيات مثلا، مثل الكتاب الذي بيدي هذا. وهكذا فالمكتبة

مقسّمة إلى حقب زمنية، كل حجرة تحوي عدة سنوات من الكتب، بتخصصات مختلفة، مكان مذهل لباحث تاريخي، كل ما تريده عن الثلاثينيات موجود في الدور الأرضي، والستينيات في الدور الأول، وهكذا... يقول د سيد أن المكتبة مخصصة للباحث الحر، بلا خطة وبلا موضوع للبحث، إيجاد كتاب معين وسط آلاف الكتب مستحيلٌ تقريباً، سيضيع الباحث وقته مدققاً في أسماء مئات الكتب حتى يحصل على بغيته، ماراً بكل غرف المكتبة؛ ولأنه سيكون غالباً مقيداً بفترة زمنية محددة لإنهاء بحثه، لن تناسبه طريقة البحث تلك، بينما الباحث الحر، صاحب وقت الفراغ اللانهائي، لن يعنيه مرور الوقت وهو يقرأ العناوين ويقارن بينها ويفتح فهارس الكتب ويدرسها؛ ليقرر أي كتاب يستعين به في بحثه.

تشغلني الفكرة، في ذلك الوقت فقط، سيبدأ المرء في القراءة بلا منهج وبلا قيد، سيتنقل بين الكتب داخل الغرفة الواحدة، ولن يخرج منها إلا إذا مل من القراءة، يبقى بعض الزوار ـــ كما يخبرني هو ـــ داخل غرفة واحدة للأبد، يرتوون تماماً، لن يصبح أحدهم نهماً بعد اليوم. أخذ د سيد الكتاب من يدي وتصفح صفحاته، توقف أمام بعض الصفحات يقرأها غير عابيء بي، فتح الصفحة الأولى يتأملها، لا يناولني الكتاب، يسألني إن كنت قرأت منه شيئا، أنا غالبا لن أقرأه كاملاً، وضعه على حجره قائلا لي أنه سيصعد إلى

الأعلى وسيعيده إلى مكانه. حاول الرجل أن يكون مهذباً معي ولن أحرمه من التهذيب، أمانع في البداية قليلاً، فأنا نسيت مكان الكتاب فعلاً، ومع ممانعتي الصورية يصر هو وأهز رأسي ممتناً لفعله الكريم، لطيف والله دكتور التعمية هذا، أتذكر ببطء ما قرأته من قبل عن التعمية، كلام ضبابي يظهر ببطء أمامي، ثم تتوالى المعلومات بسرعة.

أليست التعمية كلمة مرادفة للتكويد؟ التشفير؟ ترجمة نص ما غامض إلى نص آخر بناء على قواعد معينة؟ هذه هي الكلمة العربية الأصيلة لوصف العلم نفسه، بينما يصفون فك الشفرة باستخراج المعمى، أوقع وأكثر أناقة، كلمة شفرة بليدة أجنبية، مأخوذة من كلمة صفر؟ أظن ذلك! كناية عن الغموض المصاحب لمفهوم الصفر عندما بدأ البشر استخدامه في الحساب، لم إذن ينسبون هذا العلم إلى كلمة أجنبية؟ أصل الكلمة عربي وللعلم اسم عربي! الرجل متعدد المواهب، يدل على هذا فشله في كل ما تخصص فيه، فقد جرب العسكرية وأصيب، جرب التاريخ الإسلامي ومل، هل يمكن لعسكري أن يدرس التاريخ الإسلامي أو غيره؟ ربما تاريخ الحروب والمجانق! ثم جرب التعمية، ذلك العلم الذي يدل اختياره على تقعر مغرور أو جهل فاضح أو عبقرية مخبأة، على العموم سنكتشف كل شيء قريبا.

أحاول تمرين ذهني، أريد أن أحتفظ بأفكاري وقتا اطول بلا تدوين، كتابة الأفكار في دفتري على مرأى من د سيد سيثير فضوله

بالتأكيد. أحاول تخزين ما رأيته في الساعة الأخيرة، ما سمعته من د سيد، الترتيب الزمني للكتب، "الباحث الحر كما يسميه، ثروت عكاشة؟ لا يمكنه إيراد أسماء شخصيات عامة في التقرير، هو في النهاية تقرير عن المكتبة وليس عن ثروت عكاشة، ألم يكن الرجل عسكرياً أيضاً؟ شارك في الحروب وله قصص مروية عن مساهماته في حفظ آثار البلد، ثم بدأ التأليف — أو الترجمة — عن تاريخ الفن، وأضاف أيضا كتاباً أو اثنين عن الموسيقى. نسخة أخرى من د سيد الأهل، أو أن سيد هو نسخة عكاشة الأخرى، بينما ينتقده سيد متهما إياه بالسرقة والتضليل. أه، وإضافة أخرى، الاثنان من الوارثين الأغنياء الصيع، فهي نسخة طبق الأصل إذن.

لا يمكن استعارة الكتب، فلا وجود للمشتركين في المكتبة، أو لبطاقات تثبت شخصياتهم، أحاول طرد عكاشة من تفكيري، تلح علي عيناه ووجهه المستدير وجسده الكروي كمثال لجواهرجي قبطي في شارع هارون، بعيد تماماً عن العسكرية وما تلاها. مرة أخرى، التقرير عن المكتبة، وليس عن عكاشة الجواهرجي المتنكر في الزي الكاكي، أستسلم وأفكر في فتح الدفتر وكتابة ما أحاول تخزينه، أظل متردداً، لا شيء مهم في الحقيقة، ربما سأكتب هذه الأفكار ليلاً.

سيد

يحيط الفتى نفسه بحائط! جدار يفصل بينه وبين الناس، متوحد، قادر تماماً على مقاومة إغراء الاعتراف والإسهاب في الكلام، وعندما أسأله عن أي شيء لا يجيب. لا ترضيني إجابته ولا يعجبني صمته. عجباً لهذا الفتى، هو لا يزهو بمعارفه ومعلوماته، يخفيها ولا يريد الإفصاح عنها. حيرني كثيراً، أقرانه يبدأون بالحديث معي، لا يقاومون الرغبة في إبداء التفوق على كهل مثلي، يريدون إظهار خبراتهم وتبيان مدى علمهم. وعندما بدأت أنا في الاعتراف والكلام، وحدثته عن المكان وعن شخصي، رد بشكل موجز، ردوده قصيرة كأنه يكتب خبرا في وكالة أنباء. وعندما فجرت أمامه قنبلة ثروت عكاشة لم ألاحظ عليه أي تغير، كأنه عالم بالخبر منذ مدة، مع أن كل من حدثتهم بالأمر أبدوا تعجبهم وكذبوني، وأخذوا يتشدقون بكلام كثير عن الأصالة والبطولة وكيف أن الرجل بذل المجهود الكبير لإنقاذ الآثار وما تلوكه الأفواه من الكلام المعتاد عن الرجل. لا أفهم ما العلاقة بين عمله وزيراً وضابطاً، وبين نجاحه مترجماً؟ ربما يعتقد الرجل أن ما قام به من ترجمة متصرفة ترقى إلى درجة التأليف، واعتبر أن مجهوده في الإضافة والإطناب واللغة المحلاة، يسمح له بأن يكتب اسمه على الغلاف كمؤلف. لكني سأنتظر؛ لم أخطيء الظن في شخص ما قبل ذلك، وأتوقع أن الفتى لن يخيب ظني

مرة أخرى، إنه يتحسس المكان، يخطو ببطء راغبا في الفهم والاكتشاف، يخاف الغرباء والفضوليين أمثالي، ويتعامل معهم بحذر، لا يرغب في الإفصاح عن مكنون نفسه لأول غريب يصادفه، ولكن فضوله سيتغلب على حرصه حتماً، وحيرته ستجعله يأتي لي طالبا النصح، عندما تنغلق المكتبة أمامه وترفض الكلام، وعندما يفقد الاتجاهات في الممرات، وعندما يرتبك بين الغرف، سيرضيني ذلك كثيرا.

بالطبع، فلن يجد أحداً آخراً يقوده أو يساعده على التعرف على المكان، المدير نصاب، شيخ منسر وزعيم حرافيش، أما السيد الأمين أبو المعاطي أبو الخير، فحكاية مصرية تقليدية. أبو المعاطي موظف "فقي أزهري، ما زال جسده يتأرجح متقدماً ومتراجعاً كلما قرأ شيئاً، قرآنا كان أم غيره، بل إني قبضت عليه متلبساً، سمعته يوما يلحن الحسابات وهو يجمع ويطرح بصوت عال كأنه يقرأ ألفية ابن مالك، هو يصغرني بثلاثين عاما وتصرفاته تكبرني بأربعين. "فقي كان هدفه في الحياة ركوب الحمارة إلى الزاوية لتحفيظ الأطفال القرآن، وقراءة ربع في مأتم الحاج أبو العينين في المساء، ثم العودة إلى امرأته أو بالأحرى "ركوبته"، لكن الأقدار العابثة وضعت في طريقه الحكومة والوظيفة والميري والتراب، فأصبح مُستوظفاً في حجم الدنيا الواسعة الباهرة، واستقر به طريقه هنا، في العباسية، في مكتبة كوكب

عنبر، التي أتى إليها أول يوم وكنت أول من قابله فيها، وذلك بالطبع من حسن حظه، فسألني واجلا مرتعبا عن مكتبة كوكب منير. تأملته قليلاً، ولما وجدت فيه الفلاح صاحب الكف الخشنة من خشونة أعمال الحقل، التارك حقله وغيطه لآخر يستأجره، بينما يلبس هو قميصا بياقه منشاة، "ذلك الفتى الذي أبهرته أضواء المدينة"، الذي قد يخطيء في نطق اسم لم يصدر ب "أبي كما اعتاد، بل اسم فيه دوران الكواكب وعبق العنبر. حمدت الآلهة على صيد اليوم، وقد مرت عليّ أيام سود عجاف لم أر فيها رزقاً، أخبرته أن هذه مكتبة كوكب عنبر، وأن مكتبة كوكب منير ابنة خالتها هناك على الناحية الأخرى من الشارع، وقد صدق حدسي وحكمي، فلما سمع كلامي زالت عن وجهه الحيرة المتسائلة، وظهر مكانها الفخر والاعتداد وقلة الاهتمام، وشكرني بسرعة زاماً شفتيه، بعدما كان فكه متدلياً حتى كاد أن يلامس صدره من فرط ذهوله، وقال بعدما أشار هناك ناحية سور الدير في الجهة المقابلة: هناك؟ ثم أردف بلهجة الواثق، نافيا الجهل عن نفسه: ما أنا عارف. الجاهل الذي نفي عن نفسه المعرفة وهو يظن أنه يثبتها، لعنت العامية أينما حلت. ولما ذهب وعاد، وأذناه تتدليان على جانبي رأسه، بعدما شرب المقلب كاملاً غير منقوص، دخل فوراً إلى المدير، الذي لم يكن نصاباً وقتئذ، ماداً يده بخطاب النقل وسلم نفسه إليه. ومن ذلك اليوم وهو على قوة مكتبة كوكب عنبر التي كان يظنها كوكب منير.

الجلوس في المنور فيه كل الراحة. جلس شاهر بجانبي صامتاً، وأخرج دفتره وأخذ يكتب شيئاً ما، أنا سعيد بانشغاله عن الكتاب، وضعته على الأرض بجانب الكرسي في الجهة البعيدة عن شاهر، ربما سينساه عندما يغيب عن ناظريه، أرسل بصره إلى الأعلى؛ كل من يدخل المنور يرسل ناظريه إلى السماء، يبحث عن مفر من هذا المكان المغلق، وعن مخرج من السجن الوهمي.

حكمت على الفتى أول ما رأيته، هو لا محالة مختلف عن من أعرفهم من أقرانه، بكرور الأيام أصبحوا أشكالاً متشابهة خرجت من قالب واحد، وبالنسبة لي كنت أستمتع كثيرا بمضايقتهم وإظهار تفاهتهم. أتذكر عندما سمعت جدالاً بيزنطياً بين مجموعة منهم حول الماء المالح والماء العذب، أيهما أكثر كثافة ؟ وأيهما تسهل السباحة فيه؟ فلما اشتد الجدال، وظهرت الآراء المتضاربة، ومحاولاتهم المضنية لتحليل المفهوم الفيزيائي للماء والملح والبحر الميت والأردن وما جاورها، وضعت ما في يدي ونظرت إليهم مبتسماً، ابتسامتي تلك التي توحي لمن يراها بأني أمد يد المساعدة وأروم إنقاذه مما يترصده. ولما لحظ أحدهم نظرتي دعاني للإدلاء بدلوي في ما يتجادلون فيه، والحقيقة أني لم أخيب ظنهم على الإطلاق، فسألتهم سؤالا محدداً، أأنهيتم دراستكم الإعدادية؟ ويا لغباء من يرد على سؤال جدلي استنكاري، ويا لغبائهم عندما ردوا علي بأي نعم! هل يظن أولئك

أني لا أميز شعورهم التي يقترب منها البياض أو الصلع، وأجسادهم التي تخلت عن رشاقة الشباب واكتنزت بدهون منتصف العمر، ألم يكن في كل هذا دليل على تجاوزهم للمرحلة الإعدادية؟ عليكم لعنة زيوس! وإمعانا في التشفي وإبداء الاحتقار، أخبرتهم بالقانون الذهبي: الكثافة تساوي الحجم مضروبا في الإزاحة، وقمت من مكاني فزعاً وكأني أعطيتهم إجابة السؤال الأزلي، ما أثارني هو رد الخفيف منهم: أه صحيح! مستوى الرعونة لا مثيل له هذه الأيام.

استغرق الفتى تماماً في كتابة ملاحظاته ونسيني، خطه منمق أنيق، خط نسخ ــ كما اعتاد الناس هذه الأيام ــ مطعم برقعة، وكأن الرقعة تسري إلى يده تقاومها الرغبة في إظهار الحرف أجمل وأكثر أناقة، هذا العصر ليس عصر الرقعة، انتهى الخط تماماً وكل ما بقى منه خربشة تسمو فوقها خربشات الدجاج؛ لكني لن أستسلم للحنين وأتذكر الماضي كالكهول، لن ألوم الفتى على جهله أو قلة اهتمامه، لم أعد كهلاً، أصبحت شيخاً الآن.

شاهر

عندما عدت إلى بيتي اليوم، وأخذت أقرأ ما كتبته وأنا برفقة د سيد، أدركت أني وجدت كنزاً لا مثيل له، فالرجل فعلاً يعرف

الكثير عن المكان. قرأت في ملف المكتبة كلاماً مشابهاً عن حالة الفوضى والعشوائية التي انتقدتها، سبق وانتقدها شخص ما قبلي في أوائل الثلاثينيات، أحدهم بعث برسالة مطولة لابراهيم العسلي يوصيه فيها بتحسين مستوى المكتبة وفهرستها. ولا أعلم سبب إغفال العسلي لهذه الرسالة، لكن المؤكد أنه أوقف المكتبة في تاريخ تال لتاريخ تلك الرسالة؛ موضوع العشوائية هذا قديم إذن، والمكتبة لم تكن منظمة قط. بالطبع سيكون هذا مضراً بالمكتبة، لن أستطيع إغفال العشوائية في تقريري؛ يجب علي ذكرها وإيضاح أن تلك العشوائية لا تفيد الباحث بل تضيع وقته، لمَ لمْ يلتفت المديرون أو المسؤولون عن المكان إلى شكوى ذلك الرجل قديما؟ الرسالة موضوعة في ملف المكتبة و بالتأكيد قرأها العشرات من موظفي الوزارة والهيئة. كان من الممكن أن ينسخها أحدهم، أو يكتب تقريراً مشابهاً؛ ليتلقى التهنئة على اجتهاده.

أذهب للمكتبة هذه المرة مبكراً، قبل أن يفتح البواب أو الأمين بوابة السور. أخذت أبحث حول المبنى، وأتفحص ما حوله، المنطقة بأكملها كانت فيما مضى قصوراً أو هيئات حكومية. بالقرب مدرسة ثانوية، وهناك في آخر الشارع مطبعة الحلبي التي يبدو مبناها قديماً مهترئاً بلا عناية على الإطلاق، لا أعلم إن كانت معطلة اليوم أم أنها لا زالت تعمل، في الناحية الأخرى سور عال كسور المكتبة يضم

بوابة كبيرة، وعندما اقتربت منه لاحظت لافتة صغيرة تشير إلى وجود دير كاثوليكي بالداخل، تخيلت الرهبان بداخله شيوخاً يتحركون ببطء في ضوء الشموع، يحملون كتباً ضخمة، يقرأون فيها بأعين بدأ البياض يتغلب على سوادها، صورة كلاسيكية خلفها فيلم قديم؟

يدخل الأمين قبلي ممسكاً بالجريدة وورقة أخرى يغلف بها طعامه، كنت أول داخل للمكتبة هذا الصباح، لا أحد غيري هنا، سأتجول بحريتي، هل سيغيب د سيد أيضاً عن المكان؟ ظننته زائراً مستديماً، سأفتقد شرحه واقتراحاته وحكاياه إذا غاب. أتذكر كلامه عن وجوب إعادة الكتاب إلى مكانه، وأتساءل هل أعدت كتاب الأمس إلى مكانه؟ هل أعاده سيد إلى مكانه على الرف كما وعدني؟ أذهب إلى الغرفة وأبحث عنه بين الأرفف، لا أود أن أفسد النظام بكسلي واتكالي على غيري، ألمح كعب الكتاب في مكانه، واطمئن وأتأكد من اهتمام د سيد بالمكان.

أمشي في الممر بين الغرف، أقف في نقطة ما، من هذه النقطة لا أشاهد أياً من الأرفف، أقف في نهاية الممر، بعد باب الشقة مباشرة، بعد مترين تقريباً أرى جزءاً من الصالة، تظهر أبواب الغرف مفتوحة، أشاهد ثلاثة أبواب فقط، بينما تحجب الجدران باقي الأبواب. ينفذ ضوء النهار عبر الأبواب المفتوحة، آتياً من خلال زجاج الشبابيك نصف الشفاف، إذ يتحول الضوء الحاد إلى كتلة

ضوئية، والظلال المحددة بدقة إلى مساحات غامقة بلا أطر تحددها كما هي العادة. النور يسطع في الصالة، لا أثاث يقف في طريق النور ليحجبه، أو ليكون ظلالاً فقط نور يغطي الأرض ويصل حتى قدمي، تقع عيناي على البلاط، ألاحظ لأول مرة أن أرضية الصالة مغطاة ببلاط قديم، اختفى تماماً هذه الأيام، ربما نجده في مصانع صغيرة قديمة في محافظات غير القاهرة والإسكندرية. على الأرض تم رسم إطار مزخرف مواز لحوائط الممر، مرسوم بواسطة بلاطات مستطيلة، بداخل الإطار رصت البلاطات المائلة، واحدة بيضاء والأخرى سوداء كرقعة الشطرنج، بينما خارج الإطار يسود اللون الأبيض. الصالة والممرات كلها مغطاة بنفس نوع البلاط القديم، على خلاف أرضيات الغرف المغطاة بالخشب، كأني في بيتي القديم. عندما انتقلت إلى مصر الجديدة تاركاً شبرا، كنت قد نسيت حقيبة تخصني هناك، عدت لكي أجد الشقة متسعة كثيراً عما اعتدت، أخذت أمشي على الإطار ذي البلاطات المستطيلة وكأني أمشي على الحبل، كما كنت أفعل صغيراً، وقتها كانت قدمي أصغر، تترك مسافات صغيرة عارية من البلاطات المستطيلة، كنت أحاذر كيلا تخرج قدمي عن تلك البلاطات، أتخيل أنها لو لمست واحدة من البلاطات المحيطة فسأقع.

قطع أفكاري دخول أحدهم إلى الشقة ثم إلى إحدى الغرف فوراً، دون سلام أو حتى التفات أو نظرة تعارف. رواد المكتبة

جميعهم لا يدهشهم رؤية أشخاص ما في المكان، على الرغم من قلة الزوار، هذا أول زائر أراه هذا الصباح، دخل بعدي بنصف ساعة تقريبا، تحركت لأدخل خلفه لعلي أتعرف عليه كما فعلت مع غيره. حسن استقبال د سيد لي جعلني أتجرأ قليلا وأتقدم لأحادث هذا الداخل أمامي بحماسة.

خرج فجأة من الغرفة وهو يحمل كتاباً، وبسرعة وضعه على مائدة المطالعة في الصالة وأخرج من جيبه كاميرا، وفرد الكتاب عند صفحة معينة والتقط صورة للصفحة، وقلب الصفحة والتقط صورة أخرى، وهكذا أخذ يلتقط صوراً لصفحات الكتاب كاملة!

هاهي التكنولوجيا تقفز فوق حواجز التأخر، هذا حقيقي تماماً. أتذكر أني لم أشاهد آلة تصوير مستندات في المكتبة، ولا أفهم كيف تخلو مكتبة من آلة كهذه، فلا غنى لباحث عن تصوير الكتب. أعود للدائرة المغلقة، لا باحثين هنا لأن الكتب غير مفهرسة ولأن لأن لأن لأن. فاللامبالاة وصلت بهم إلى هذا الحد، وليس من الطبيعي أن تخلو المكتبة من آلة تصوير، وليس من الطبيعي أيضا أن تمنع الاستعارة، فيصبح الحل الوحيد أمام الزائر هو تصوير الكتب، وكنت أظن أن تصوير الكتب بالكاميرات ممنوع تماماً، تصبح المكتبة بلا جدوى في هذه الحالة، وتتحول إلى خزانة ضخمة للكتب، لا جدوى من وجود قاعات للمطالعة في وجود الكاميرات، ولا حماية لحقوق المؤلفين.

يقلب الرجل الكتاب ويصور كل ورقة بسرعة، يبدو أنه اعتاد على فعل ذلك، وصار مصور كتب محترف، لا يضيع وقته وقد ينتهي من تصوير الكتاب كاملاً في ربع ساعة، وبالتأكيد يتم ذلك بعلم وموافقة مسؤولي المكتبة.

يدخل د سيد ليحييني، مندفعاً يتقدم إلى الرجل، يصافحه ويتكلم معه قليلاً، فتحركت مبتعداً لكي لا يظنا أني أحاول الإنصات لما يقولان، هذا زائر جديد ويجب أن أتوقع ظهور الكثيرين من المصورين مثله.

أفكر أني قد أقوم بتصوير بعض الكتب لنفسي، أثق أن هناك كتباً ومخطوطات لن أجدها في أي مكان آخر، وقد لا يكفي الوقت لقراءتها أو حتى الاطلاع عليها، في النهاية ومهما كتبت في التقرير، ستهدم المكتبة لتفسح المجال للمترو. ستضيع حينئذ بعض الكتب في المخازن، ويسرق بعضها الآخر.. أفتح دفتري لأبدأ في تسجيل ملاحظاتي، أكتب وأنا أتوقع صحة تنبؤاتي. "يحرص زوار المكتبة على تصوير بعض الكتب بالكاميرات الحديثة، وذلك لغياب آلات التصوير من المكتبة"، أتساءل هل ينقل الرجل صور الوثائق إلى جهاز كمبيوتر ويقرأها من خلال شاشته؟ أم أنه يطبع الصور ويعيد تجليدها في هيئة كتاب مرة أخرى؟ فكرة تصوير الكتب تقتل الوقف تماما، منذ عقود أوقف أحدهم هذه المكتبة على خدمة طلاب العلم،

وأرادها أن تكون صدقة جارية على روحه أو روح أحد أقربائه، متوقعا أن تعيش المكتبة إلى الأبد، مقاومة عوامل الفناء، غير عابئة بحشرات الكتب تنخر فيها، ولا السرقات المتكررة التي ستؤدي بالمكتبة حتماً إلى النهاية، ولم يتوقع أيضاً أن يتم إهمالها بهذه الطريقة، بحيث يخون القائمون على الوقف عهدهم، وبالتأكيد، لم يتوقع أن يأتي أحدهم ليصور كتبه الموقوفه ووثائقه، أتخيل أنه سيعترض حتماً على فعل التصوير؛ سيظن أن تصوير الكتب قد يضيع ثوابه وحسناته، لن يأتي أحد للمكتبة للاطلاع إذا تم تصوير كل الكتب وطباعتها مرة أخرى، ومن ثم لن يصبح للوقف قيمة، فقيمته الوحيدة، بحسب رأي صاحبه، في مرضاة الله تعالى وتلقي الحسنات، وليست قيمته في تعليم الناس أو نشر العلم بينهم، أتوقع أن أجد مصاحف موقوفة في المكتبة، كتب الصحاح وشروحها، وأمهات كتب الفقه. وكلها مختوم على أول صفحاتها كلمة "وقف" كما اعتدتها ورأيتها مرارا أثناء عملي. أود أن أكمل قراءة ملف المكتبة، سأبحث عن "حُجة" الوقف، التي عادة ما تكون مكتوبة بخط اليد، بعض الواقفين يصرون على كتابتها بخط يدهم، ويعتبرون أن ذلك تأكيد وإثبات للوقفية، يظلون أياما عاكفين على كتابة الحجة، يبدلون كلمة هنا أو كلمة هناك، يهتمون باللغة وحسن العبارة. الحجة هي الوثيقة التي ستبقى ليستمر الوقف. هي آخر ما سيتبقى من

كتابات الواقف، فكل الاوراق إلى زوال إلا هذه. لذلك، يكتبها الواقف كأنه يكتب قصيدته الأخيرة.

أعرف أن اسم صاحب المكتبة ابراهيم العسلي، وأنه أوقف المكتبة في منتصف الثلاثينيات، يبدو أنه نفس الفتى الذي تزوج كوكب عنبر، لا أعلم لَمَ أوقف المكتبة؟ ولَمَ تخلى عن ملكيتها؟ حتى الآن لم أَطلع إلا على صفحات قليلة من ملف المكتبة، أنا أتصفح الملف من منتصفه، كما أفعل مع مجلة أو جريدة، خطئي الذي أكرره دائما. أستمتع بقراءة الفواتير وحسابات المشرفين على المكتبة، والمصروفات السنوية، وأملُّ بسرعة من قراءة المخاطبات بين المكتبة والوزارة، ثم بعدها الهيئة. هناك قصاصات من الجرائد بين الأوراق، ربما أضافها مهتمٌّ بالمكتبة، فتلك الأخبار لا تعني الهيئة في شيء، أخبار كثيرة من عقْدي الثلاثينيات والأربعينيات، وتقل فيما بعد ذلك. ما نشر في تلك المدة أكثر مما نشر في الستينيات والسبعينيات والثمانينيات. في الستينيات انتقدت الصحافة المكتبة بصفتها أحد إنجازات العهد البائد، وطالبت بنقل محتوياتها إلى دار الكتب أو إلى مكتبة جامعة عين شمس، وهو ما يعني تلقائياً حل الوقف، الأمر الذي لم أتفهمه أبدا. هذه وصية شخص ميت، كيف لأي شخص أن يخالفها؟ حتى وإن كان هذا الميت أنانياً، مهتماً فقط بحسناته وثوابه؟ أتت السبعينيات لينقلب الأمر وتبدأ الصحافة في كيل المديح للمكتبة،

وكيف أنها فريدة من نوعها ورائدة في مضمارها، وأن على هيئة الأوقاف أن توليها الرعاية والعناية، وأن عليها أن تبدأ في فهرسة الكتب وتصنيفها حسب الأنظمة الحديثة، مقالات كثيرة وفعل معدوم، لم أجد وثيقة واحدة في الملف توحي بتطوير قامت به هيئة الأوقاف. وبعد عدة سنين، وبالضبط في أواخر الثمانينيات، وجدت مقالاً وحيداً عن المكتبة، ربما كتبه صحفي مبتدئ، لم يكتب سوى وصف للمكان و لم يطالب أحداً بأي شيء، ومنذ ذلك التاريخ وحتى اليوم ظلت المكتبة منسية ومجهولة تماما، حتى أتى المترو.

سأبحث عن المخطوطات والكتب القديمة، ربما سأعثر على كتاب ابتاعه مؤسس المكتبة، وأوقفه على طلبة العلم، كما أوقف المكتبة ذاتها، ربما سأجد نص الوقفية كما وجدته على الأوراق الأولى من كتب كثيرة قبله، وسأتعرف على المؤسس حينها، فنص وقفية الكتاب يوضح بجلاء شخصية كاتبه، إيراده لكلمات بعينها، تكراره لفكرة تلح عليه أو لرأي يظنه صوابا، كيف تسرعت وحكمت على الرجل بأنه أناني؟ ربما كان هدفه الأساسي خدمة العلم فعلاً، أقرر أن أنزل إلى الطابق الأرضي حيث المجموعة الأولى من الكتب، نواة المكتبة التي وضعها المؤسس بيده. سأبحث عن اسم "ابراهيم العسلي في كل مكان، في فهارس هيئة الأوقاف، في كتب التاريخ، وعلى انترنت! وأيضا في ملف المكتبة، ربما يخيب ظني، إذا وجدته أسس

المكتبة راغباً في خدمة الناس، قد أوصي وقتئذ بترك المكتبة كما هي، لن أوصي بالهدم. حتى الآن مازلت في حيرة من أمر التقرير، ولا أعلم كيف أوجهه وما رد فعل الهيئة عليه، والمهلة تقترب من نهايتها ولابد من الاستقرار على صيغة ما.

قبل أن أعود إلى الأسفل، سمعت صوت خطوات د سيد قادماً، كنت قد نسيته ونسيت المصوراتي، كانا غائبين في حجرة بالداخل، يصافحني د سيد مبتسماً، سائلاً عن أحوالي. أسأله عن الرجل، يضحك ويبادرني بالسؤال، هل أعرف حنَّا الماشي؟ يتكلم وكأنه يسألني عن شخصية تاريخية، أو عن رجل معروف، أحاول التذكر ولكني أنتهي إلى الإجابة بالنفي، يقول لي موضحا، حنَّا الماشي، نوع الويسكي المعروف، الإنجليز عندهم حنَّا الماشي، ثم يشير إلى الحجرة قاصداً المصوراتي، بينما نحن عندنا حنَّا الناسخ.

أتذكر فجأة الرجل ذي القبعة والعصا، أنقل بصري إلى المنحني فوق الكتاب يصور أوراقه، حنَّاهم مفرود القامة يمشي بثقة، يدير رأس الملايين يوميا، بينما حنَّانا ينحني فوق كتاب ولا يثير إلا سخرية فرد أو فردين، بحسب د سيد، فحنَّا الناسخ رجل اعتاد المجيء إلى المكتبة منذ مدة، حيث يترك حقيبته بالأسفل ويأخذ منها دفتراً وقلماً، يصعد إلى إحدى الغرف ويختار كتاباً، يجلس على أحد الكراسي ويبدأ في نسخ الكتاب، بصبر وأناة، وكأنه يملك الوقت

كله، وكأنه خالد لا يموت، وكأنه ماكينة نسخ. يبقى عدة ساعات في المكتبة ينقل من الكتاب صفحاته كلها، حتى إذا ما انتهى من نقله كاملاً عاد وأخذ غيره وبدأ في نسخه، ومن هنا أطلق عليه د سيد اللقب، كل ما عرفه رواد المكتبة عنه، أنه حنَّا، وأنه يأتي لينسخ. تساءلت، بم يسميني د سيد؟ ثم أتت بعد ذلك التكنولوبيا — حسب د سيد أيضا — لتغير خطة حياته، فاكتشف أن هناك اختراعاً حديثاً يسمى بالكاميرا الرقمية، وأن بعض تلك الكاميرات الرقمية لها القدرة على التقاط صور للمستندات بنفس مواصفات وجودة آلة نسخ الأوراق، ولما سمح له مدير المكتبة بالتصوير، قام حنَّا الناسخ بعدة تجارب توصل من خلالها إلى أفضل وأجود صورة يمكن للكاميرا أن تلتقطها، وبدأ في تنفيذ مهمته أو بالأحرى مخططه. يقول سيد: إنه أتاه يوما بمجموعة أوراق مغلفة، تصوير لأحد كتب المكتبة، كان منبهرا بالفكرة وما توفره من الوقت. أنا نفسي كنت منبهرا، الفكرة خلاقة بالفعل، وأن يفكر فيها كهل كحنَّا، أن يتعامل مع الآلة السحرية الصغيرة التي يخاف من أمثالها الكهول، أن يطور نفسه ويترك قلمه ممسكا بالآلة مهتما بطرق التصوير واستخراج صور المستندات أو الأوراق من بطاقة الذاكرة، كل هذا كان مبهراً لي.

لا يعرف د سيد ما دافع حنَّا لنسخ الكتب، يقول: إنه ربما بدأ بالبحث عن معلومة أو خبر أو مقال، واضطر ـــ كما يفعل الكثيرون ـــ إلى نسْخِ ما وجده، ولعله نسخه بغرض استرجاعه بعد ذلك أو

دراسته بشكل مفصل في مكان آخر، ثم تكونت لديه عادة نسخ، وأصبح النسخ هدفه في الحياة، كتابا بعد آخر حتى تمكنت العادة منه وأصبحت إدمانا، أتصوره أعزباً منقطع الصلة بالعالم، نسخة من د سيد ولكنه أصغر سناً، أكثر صمتاً، وأقل انفتاحاً على الناس. أصبح حنَّا الناسخ يأتي كل عدة أيام، فيقضي اليوم بكامله، ليصور كتابا ضخما أو عدة كتب، كل ما يعلمه سيد عنه، أنه كان مدرساً للغة العربية.

قابلنا علي أحمد أثناء نزولنا، فأشار د سيد إلى الأعلى وأخبره أن حنَّا الناسخ موجود، تركنا فوراً وصعد إلى الأعلى. قال لي سيد أن علي يكره حنَّا الناسخ كثيراً، لم يكن يشعر به قبل ذلك، أثناء جلوسه الماراثوني وجولاته اللانهائية في النسخ. لم يلتفت إليه أبدا، ولكن مع التطور الذي أصابه والكاميرا التي بات يحملها ويصور بها الكتب، أخذ حنَّا يلفت الأنظار إليه، وكان من السهل على د. علي إدراك ما يفعل.

الكاميرا ليست اختراعاً حديثا بأي حال، وأبناء الستينيات أمثال علي وسيد عرفوا كاميرا التجسس التي تلتقط صورا للوثائق، حينها كرهه علي فعلا، ورأى فيه شخصاً طماعاً، يتعجل الحصول على المعلومة، لا يبذل مجهوداً في القراءة والتواجد داخل المكتبة كباقي الزائرين، أو حتى القيام بنسخ الكتب بيده كما كان يفعل

سابقاً. حنّا الكريه الذي يريد تدمير المكتبة، وإذا ما سألناه كيف ذلك يا د علي؟ يرد بأن الرجل يصور الكتب القديمة التي لا مثيل لها في المكتبة، ثم يعيد طباعتها ليربح منها. كذبة حمقاء أطلقها علي، كما يخبرني سيد وهو يضحك، الحقيقة أن أيا من تلك الكتب لم يظهر حتى الآن في المكتبات أبداً، حنّا الناسخ أكثر بساطة من أن يفعل شيئا كهذا. أرجع د سيد كل هذا إلى مزاج علي الحاد الذي اكتسبه مع سنه المتقدمة، وأيضا من فقدانه الثقة بالناس، بعد هجوم بعض تلامذته عليه بسبب ترجمات متعددة قام بها في السنوات الأخيرة.

بدا لي أن د سيد يتعامل مع الرجل باستخفاف لا مثيل له، الدكتور علي بالنسبة لي مترجم قدير وأستاذ جامعي ولا يصح ذكره بهذه الطريقة، أو وصمه بمثل هذا الكلام. وتأكدت شيئاً فشيئاً من أن د سيد من الأشخاص الذين ينتقدون كل من يعرفونه لمجرد الانتقاد، الرغبة الملحة في تشويه الغير، وإظهاره متخلفاً متأخراً.

تابع د سيد بسخرية، ولذلك د علي حريص على تنغيص حياة حنّا الناسخ كلما شاهده، فهو يظل يدور حوله ويصدر أصواتا مرتفعة، ويسعل ويعطس حتى يمل الآخر ويترك المكتبة. سألني: هل أتى حنّا الناسخ مبكراً اليوم؟. لو كان د علي يفعل ذلك حقاً لاستحق سخرية سيد، لم أكن أتوقع منه مثل هذه الأفعال الطفولية،

السعال وإحـ الجلبة، وإشغال حنًّا عما يفعله، على الأقل لن يقوم بها في مكانم كهذا. على الرغم مما يبدو، فالمكتبة ليست مكاناً عاماً على الإق، الزوار محدودون، ولم يزدد عددهم عن العشرة إلا يوماً واـ آتي هنا يومياً ولمدة أسبوع تقريباً، والوجوه متكررة لا تتغير، كمعتادون على ارتياد المكان، وهم من مرحلة عمرية واحدة، يشتن بالأدب أو التدريس أو غيره، أو عاطلين كالدكتور سيد. يتعاملامع المكان على أنه استراحة مجانية تقدمها لهم هيئة الأوقاف، وـر للقراءة وتصوير الكتب بلا رقيب أو حارس، بل ويبدو أن شخص لا يتدخل كثيراً فيما يحدث من تجاوزات داخل المكاندو أيضا أن د سيد يستمتع بكل ذلك، فالكتب لم تعد تهمه، وما ينتظره الآن مواقف الناس وكلامهم وحركاتهم، يظل يراقب ار ليتذكر ما يفعلونه فيما بعد، فقط لكي يحكي لي عنها، يسخرها أمامي، أو ربما ليسخر منها مع اصحابه في وقت ما.

أمسَلـ كتابا من على أحد الأرفف، وضعه بطريقته الاستعراضيةم عيني، وقال لي أنها أقدم رواية عربية، فهي حدوتة طويلة متشعن الخلق والخالق، وهي تحمل معاني دينية وأخلاقية وتاريخية مهوأخبرني أن الكثيرين ذكروا اسم البطل في كتاباتهم حتى صار شية لامعة مشتركة بين عديد من المؤلفين، حتى وصل

إلى بلاد الإنجليز، هكذا أخذ د سيد يخلط الهذر بالجد حتى احترت في فهم ما يريد قوله، يسخر حيناً من المعاني الأخلاقية و الدينية، ثم يلح علي لآخذ الرواية لأقرأها. هذا الإلحاح غلب الجانب الجاد في كلامه.

غلاف الرواية الأمامي مزخرف بزخارف نباتية بسيطة، هذا النوع الذي تحرص دار النشر على رسمه على غلاف منشوراتها، لتتميز به عن غيرها، بينما الأمر في الحقيقة هي طريقة لتوفير النفقات، فلا غلاف ملون يحمل صورة أو رسماً ما. عنوان الكتاب واسم المعد مكتوب بين الزخارف. ربما يظن سيد أني لم أقرأ حي بن يقظان من قبل، أو أني لا أعرف الحكاية.

حسناً، قبلت اقتراحه برضا حقيقي، يقول لي أنه سيتركني الآن ليتابع قراءته، عليه أن ينهي كتاباً ما. يخرج هو، أجلس في صالة الشقة، الدور الثاني هذا قديم، معظم الكتب ذات أغلفة بيضاء أو ذات لون واحد، مما أصدرتها وزارة الثقافة في وقت سابق بأسعار قليلة، رغبة منها في تثقيف الناس؟ أظن أن اسمها في ذلك الوقت كان وزارة الإرشاد؟

"حي بن يقظان" هذه منشورة في عام ١٩٦٧، عام النكسة! هل احتاج الناس لقراءة حي بن يقظان ليدركوا أنهم قد خُدعوا؟ إذن فهذه الغرفة تحوى كتبا صدرت في الغالب في الستينيات، أو تم

إهداؤها إلى المكتبة في ذلك الوقت. أتساءل الآن، ماذا لو أهدى أحدهم للمكتبة كتباً قديمة؟ ألن يؤثر هذا الإهداء سلباً على الترتيب الزمني للكتب؟ ألن يثير حيرة الباحث؟ أتوقع أن أجد كتاباً يعود إلى عقود مضت بين تلك الكتب، سيكون الكتاب شاذا بين ما حوله، كلهم ستينيون بينما هذا ثلاثيني. ربما تخلص أحدهم من كتب قديمة كانت بحوزته. أتساءل مرة أخرى هل يضير الباحث في مكتبة كهذه فوضى محتوياتها؟ أرى الناس يبدون مستمتعين بتلك الفوضى المحيرة كثيراً، بل ربما لا يشعرون بالحيرة من الأساس، فاليوم صباحاً دخل حنَّا الناسخ إلى الغرفة بدون تردد وأمسك كتابا بعينه وبدأ في تصويره. يا رجل! أهؤلاء زوار يعنيهم الترتيب في شيء؟

سيد

كان علي يمسك بتلابيب حنَّا الناسخ، دخلت عليهما وهو يصرخ في وجهه: اللعنة" وأنا الذي ظننت أن لغتي مميزة، أجد علي ينطق بهذه الكلمة في القرن الحادي والعشرين. الحقيقة أني كنت دوماً من هواة مشاهدة المشجارات، بلا نية في فضها أو رأب الصدع بين أبطالها، فلا متعة تذكر في فض اشتباك بين اثنين يوشكان على قتل بعضهما، خاصة وإذا كان الشخصان لا يستطيعان قتل بعوضة،

وكل ما يعينهما الله عليه هو الصياح. وجدت الكاميرا في يد حنًّا يتمسك بها بقوة، وكأنها تحوي إكسير الحياة، وعلى الرغم من الكحول الذي يسري في عروق علي بدلاً من الدم وجدته مهتاجاً كالثور، يمسك بتلابيب حنًّا ويهزه هزاً عنيفا، ولو اكتفى بذلك الهز لكفاه، فحنًّا لم يعد قادرا على الكلام أو المقاومة. ولكن، ماذا بعد؟ سيظل علي يهز الرجل حتى يروب، أو ربما يتفكك وينتهي من صداعه إلى الأبد. أخذت أنتظر المرحلة القادمة، ما بعد الهز، والذي طال حتى ظننتها لا يأتي، وعندما دخل الفتى وفرق بينهما بيسر بالغ، جلس الاثنان يلهثان كل على مقعده.

أصابني ـــ صراحة ـــ الموقف بالإحباط، فعلي كان ينتظر شاهر، أو أي نجدة تأتيه حتى يتحجج بها ويترك حنًّا، وحنًّا لم تعد قدماه تقوى على حمله، فما إن تركه علي حتى انهار على المقعد. وشاهر ظن أنه يحسن صنيعاً بما فعله، لكنه أفسد متعتي في مشاهدة بهدلة الرجلين لبعضهما؛ ولأن الثلاثة يتبادلون التشخيص، فقد كان كل منهم يؤدي دوراً في هذه الموقعة الفريدة، وكل يحاول تأدية هذا الدور باجتهاد وتفان، تقدمت أنا لأقوم بدور الحكيم الوجيه، صاحب الخبرة والعقل، فما هم بأفضل مني على المسرح، و خيرٌ للدراما ما فعلت.

انتحيت بعلي جانبا، صمته أوحى لي بأن سبب الشجار عمل كارثي قام به حنَّا، وكأنه ضبطه يجلد عميرة على صفحات أحد الكتب أو ما شابه. لم يسعفني عقلي بصورة أقسى من هذه، فعلي وإن كان عصبياً مجنوناً، فإنه يبقى هادئاً ساعة المواجهة، مؤجلاً إياها إلى حين، أو لاغياً إياها من حساباته. كان الرجل يلهث، ولما نظر في عينيي، وجدت وجهه مرهقاً زائغ العينين، حتى أني خفت أن يصيبه مكروه، بل ربما أصابه مكروه فعلاً. وبكلمات متقطعة، أفهمني أنه وجد حنَّا يصور مخطوطات ما، وأنه لما اقترب منه دون أن يشعر، أرسل ناظريه من فوق كتفه ليرى ما يقوم بتصويره، فقرأ بخط أنيق عنوان المخطوطة، ووجدها حجة وقف المكتبة، هنا وفي إحدى اللحظات التي تشهد تحكما بالأعصاب، يؤكد على أني ما زلت شاباً قوياً، صاحب أعصاب متينة و قدرة على رسم انفعالات زائفة على الوجه. سرقت شفتاي ابتسامة، كتمتها على الفور وعدت إلى تقطيبة الجبين ورفع أطراف الحاجبين، بسيماء الرجل الجاد، ثوان بعدها كادت الضحكات تفلت مني مرة أخرى، ولكني أدرت وجهي لحنَّا كي أنسى وجه علي المرهق المتعرق.

كان حنَّا جالساً يلهث وهو ينظر في غضب مكتوم إلى علي، كان بالطبع غير مدرك لما جرى، غير عالم بأسباب غضب علي. غالبا اعتقد أن علي قد فاض به ولم يعد يتحمل رؤيته وهو يصور

الكتب يوماً بعد يوم، فهجم عليه راغباً في إلقائه أرضا. لم ألم نفسي أبدا في تلك اللحظة، كما قد يفعل البعض، فلست مسؤولاً عن القصور العقلي الذي أصاب علي في أواخر أيامه، والذي جعله يظن أن شخصاً ما قد يستطيع، بعد حصوله على عدة أوراق أن يمتلك المكتبة، وأن الوقف قد يُحل وتعود المكتبة لورثتها، وهو ليس من الورثة بأي حال، بل وأن شخصا قد يبتاع المكتبة من هيئة الأوقاف، تلك الهلاوس التي ظللت سنوات أحشي بها عقل علي، وهو مصدق لكل ما أقوله. يا علي أنت تستحق ما أفعل فيك.

أتى حنَّا ليُتم بحثاً، هذا ما أظنه، لا أرى سبباً آخراً. ولما أتم بحثه انشغل بالنسخ، ثم انشغل بالتصوير، وهكذا فعل كما فعلت أنا وكما فعل علي، انشغلنا بالعيش في المكان عن المكان نفسه. ولكني نسيت أن أبدل اسم حنَّا الناسخ، فهذا اسم قديم بائد، ربما يجب أن أسميه حنَّا المصور، أو حنَّا الإلكتروني - هذه ستينية قديمة — أو حتى حنَّا الديجيتالي، حنَّا ديجيتال، لكن كلها أسماء سقيمة، يكفي أن أسميه حنَّا الناسخ، فما يفعله نسخٌ في النهاية. تقدمت من حنَّا وأمسكت بالكتاب الذي كان يصوره، فوجدت بين إحدى صفحاته ورقة مطوية، وثيقة مرفقة بالكتاب، صورة لحجة أحد الأوقاف، يظهر بجلاء أنها كُتبت لوقف إيراد بستان على إعاشة فلان بن علان. واسم البستان ومكانه ظاهران بارزان بخط أكثر انتظاما وأكبر حرفا، تفقأ

ألف البستان عين قاريء برايل، بينما عجزت عين علي عن ملاحظتها، يتسرب الشعور بالأسى و الندم إلى قلبي، لكني أنفضه سريعاً. الكحول هو السبب، يا علي أنت ستبذر مدخراتك قبل أن تموت، وكل ما سيتبقى معك لن يكون كافياً لشرب راس العبد، أفق يا أخي فالكبد ليس بمتجدد، وارحمنا من فساد عقلك الذي كاد أن يهلك الرجل. كيف اعتبر علي أنها وثيقة أصلية بينما يظهر بجلاء أنها مصورة؟ الآن بدا لي تسرع وغباء وسكر علي واضحاً، للحظات فقط غضبت لما أصاب حنًّا من إهانة. وإن كان الأمر ما زال مثيراً للسخرية والضحك، بل وسببا للاستمرار في الكذب على علي وتلفيق الأمور.

أخذتُ أحدِّث حنَّا بهدوء، محاولاً استمالته ومعرفة ما سيفعله الآن، الكاميرا مازالت تعمل، ونسخ الأوراق مازالت سليمة و لم تسقط من الكاميرا أثناء وصلة الهز، وملابسك مكرمشة لكنها سليمة، والأزرار في أماكنها، وقتنا مينرفا شر قطع الأزرار.

كان الرجل مريحاً للغاية، عاقلاً على خلاف ما تصورته من مهووس بالتصوير مثله، فلم يفتح فاه إلا بكلمات توحى بالتماس العذر لعلي واستعداده للصفح عنه، وما محبة إلا بعد عداوة. أخطأ شاهر حينما فرق بينهما إذن، كان يجب أن يتركهما لنرى كيف سيفسد علي أخلاق حنَّا المسيحية المُحبة، و لم أفهم ما هذا العذر

الذي يتفهمه حنَّا!! كانت الكلمات على طرف لساني، المجنون كان سيقتلك لولا تدخل الفتى، أي عذر تتحدث عنه، لكني آثرت السكوت، خوفاً من كلام علي عن الوثائق، خوفا من انكشاف الكذبة التي لم تكن قد انكشفت حتى الآن. أو الخوف من الأسوأ، أن يأتي علي على ذكر الوثائق فيصدقه حنَّا وشاهر، وتنقلب المكتبة رأسا على عقب بحثاً عن ورقات وهمية، سكت وكلي انفعالات متضاربة، كل هذا و الأدرينالين يفور في جسدي، نسيت تلك الإثارة منذ زمن. اكتفيت بوجه الصامت البليغ.

لم يظهر أي من المدير أو الأمين، رواد المكتبة يتشاجرون وهما في واد آخر، كل في ملكوته يسبح بحمد ربه، أو بحمد الحكومة كما يفعل أبو المعاطي أبو الخير، وأمامي شاهر ولسان حاله يقول لقد دخلت "العباسية" حقاً. مضى الوقت في كلام لا معنى له، من قبيل تطييب خاطر حنَّا، ومحاولة إفهام البغل علي خطأه، وإطلاعه على الوثيقة التي كان حنَّا يصورها، وتبيان أنها لا تمت للمكتبة بصلة، وأنه تسرَّع وأنه وأنه...

بُهت علي في البداية ولكنه عاد يكابر ويتساءل عن سر اهتمام حنَّا بالنسخ والتصوير، وأخذ يهذي بكلام يدخل في حيز التدخل في حريات الأشخاص والأفراد، وأورد ادعاءات كاذبة تشير إلى أن التصوير ممنوع في المكتبة، فاضطررت لإسكاته قبل أن يتطور

الموضوع إلى الأسوأ. وبعد نقاش وجدال لا معنى له، انتهينا إلى أن تصافح الاثنان، وخرج علي بخطوات بطيئة من التعب، بينما عاد حنًّا مرة أخرى لتصوير كتابه، وكأن شيئا لم يكن، غضب الذباب وشجار الكتاكيت.

ولكن الأمر لم ينته بعد، وشعرت أن واجبي يحتم علي القيام بأمر ما، احتفال!! سأدعوهم إلى احتفال في بيتي، بمناسبة مرور ستين أو سبعين أو ثمانين عاماً على افتتاح المكتبة، المكتبة تجمعنا!! على ما أكنه لعلي من قرف، إلا أني أجده أقرب الناس إلي اليوم، لم نتسامر سويا منذ مدة طويلة. اليوم بعد هذه المعركة الطاحنة تحسن مزاجي كثيراً، وتذكرت بشوق جلساتنا المطولة سابقاً، حينما كان علي أحمد مترجماً حقاً، فناناً، باحثاً عن أفضل الكلمات والتعبيرات التي تنقل المعنى، مخلصا للكاتب الأصلي محترماً إياه.

من ناحية أخرى ستكون الجلسة نوعاً من التقريب بين المذاهب، كما يفعل علماء الأزهر الشريف، لكن ليس كما ينتهي علماء الأزهر إلى زيادة الفرقة بين الناس، أيضا سيكون الاحتفال من باب فضح المدير النصاب أمام شاهر، ومن باب الاعتذار المستتر لعلي على ما فعلته به، فأنا لن أعترف له مطلقاً بالكذبة، ومن باب ضم شاهر لزمرتنا، والتقرب من حنًّا الناسخ الذي عاش بيننا زمناً بدون أن نعرف عنه شيئا ذا قيمة.

شاهر يسألني ولأول مرة في شوق، وقع الفتى في الفخ وأطبقت أنا عليه. مازال الفتى متحيراً مما حدث، متعجباً من شدة غضب علي وثورته، وكان يسألني الإيضاح، هل هناك مواقف عدائية سابقة بين الاثنين؟ لم يصور حنًّا الكتب في الأصل؟ هل هناك أغراض خفية فعلا كما قال علي؟ أليس تصوير الكتب ممنوع؟ هو تلميذ نابه لا شك في ذلك، وسأقوم أنا بدور الأستاذ العالم، خيرٌ للدراما ما سأفعل، ولا بأس من اختبار صبره قليلا، وتركه ليتكلم ويخرج كل ما يحيره ويدور في عقله. ولما انتهى بيانه وقارب الهلاك من شدة فضوله، اتخذت أنا سيماء الخبير المطمئن لخبراته، وأخذت أحدثه عن بديهيات المكتبة، لا أجيب عن أسئلته مباشرة، أحكي له وعليه الاستنتاج والتحليل، وقد يخطيء كما يفعل الكثيرون، ويستنتج وقائع خيالية بعيدة عن الحقائق، ولن ألومه في تلك الحال، فمَن من المؤرخين لم يخطيء من قبل؟ وكم من رواة السير مدح أحد الأبطال وذم آخر، وكان المديح والهجاء كلاهما باطل؟ استعنت بجميع الآلهة وبدأت في الشرح:

"للمكان هنا قواعد وأصول وقوانين مرعية، لم يتجاوزها أحد مع كرور الزمن، بل ظلت نبراسا لكل الزوار منها يستقون اتجاهاتهم داخل المكان، وبها يهتدون في حال التيه وفقدان الدليل. وتلك القوانين وضعها كما قد تتوقع مؤسس المكتبة، هذا الذي سعى قدر

طاقته لوضع قوانين ونواميس لا تتغير مع الزمن، بل لا حاجة لتجديدها أو لإلغاء وتعديل بعضها، فهي إذن ثابته منذ أن أُنشئت المكتبة. وعلى الرغم مما يبدو على تلك القواعد من جمود وتخلف، إلا أنها حفظت المكتبة طوال تلك السنين، بعيداً عن أعين المتطفلين والهواة، بل كانت تلك القوانين سبباً في اهتمام أصحاب العقول النيرة بالمكان، ورعايتهم له وإدراكهم لأهميته، وتلا ذلك حفاظهم على المكان وما يحتويه. وهو ما كان ليحدث لو لم تتطور القوانين الأولى وزاد عليها أحدهم ما استشعر أنه مواكب لروح العصر أو مناسب لزماننا الحالي، فالتطوير – كما ترى – لا يكون دائما من منطلق الرغبة في التحسين أو الإتقان، وإنما تتداخل عوامل أخرى لتكون أسباباً أكثر جلاءاً للتطوير، فمنها على سبيل المثال: تحقيق المآرب الشخصية، وهو ما يسود في أيامنا هذه، والرغبة في تخليد اسم المطور، وهو ما فعلناه على مر التاريخ. ولا ريب أن نباهة واضع القوانين الأولى كانت سبباً في فرادة تلك القوانين، ولا مراء أن واضع تلك القوانين قد بذل الجهد حتى خلص إلى وضعها على تلك الصورة النافعة ولو كر الزمن، والباقية حتى يومنا هذا بلا حاجة إلى تعديل أو تطوير.

أما عن سؤالك بخصوص التصوير، فمن المعلوم أن ساعة إنشاء المكتبة كانت ماكينات التصوير والنسخ غائبة، وأن فكرة نسخ

وثيقة ما أو صفحات من كتاب كانت تتلخص في أن يقوم المرء بنسخها بخط يده كما كان يفعل حنَّا الناسخ، وهو عمل لا غبار عليه ولا تستطيع أي مكتبة عامة منعه على الإطلاق، وذلك لأهمية النسخ للزوار من ناحية؛ ولأن الجهد المبذول والوقت الضائع في عملية النسخ يجعلها قانونية من ناحية أخرى. كذلك فإن نسخ الكتب يعتبر نوعاً من الاستذكار، فالنسيان قلما يصيب المعلومة المنسوخة، حتى وإن ضعفت حافظة ناسخها. قد تصل إلى نتيجة الآن بعد كلامي هذا، فتقول أن القوانين الأولى لم تعد مجدية، وكان لزاماً على واضعي القوانين الأولى السماح بتطويرها وتغييرها بدلاً من هذا الجمود، الذي سمح – في نهاية الأمر – لأحد زوار المكتبة بنسخ الكتب بمجهود بسيط. وهو اعتقاد مخالف للصواب، فنحن لا نعلم شيئا عن نية حنَّا الناسخ، الذي قد يكون مخلصاً للمكتبة أكثر من أي منا، فالرجل حتى هذه اللحظة لم يظهر من أفعاله ما يدل على خبث نيته، كما أنه لم يوضح لنا غرضه من التصوير، ومن البديهي أن نفترض أن غرضه ليس خبيثاً كما يعتقد علي، بل إني أجزم أنه يقصد فائدة المكتبة، وفائدة الناس. فنحن في زمن ماتت فيه فكرة المكتبة الوقفية، كتلك التي نقف فيها الآن، بل انتهت فكرة وقف كتاب معين. واستبدل الناس وقفيات الكتب طلباً للثواب، ببناء المساجد والتصدق على الفقراء، على خلاف ما اعتقد الناس قديماً، في

استمرار منفعة الكتب الموقوفة حتى بعد وفاة واقفها كصدقة جارية كما أخبر الحديث النبوي.

دائماً ما كانت هناك سرقات للكتب، وبعض السرقات اكتشفناها بالصدفة، والأغلبية لم نعرف عنها شيئا، فأحدهم يأخذ كتابا ويضعه خلف قميصه، أو تحت بنطاله، الأمر سهلٌ جداً، ولا يمكن لأحد اكتشافه. والأمين في الحقيقة لا يهتم، ولا مسؤولية حقيقية على الأمين أو المدير، والكتب غير مفهرسة، ومن ثم فلن يتم اكتشاف السرقة أبداً، ومؤسس المكتبة أراد هذا منذ البداية، فلم يفهرس الكتب وقتئذ، ولما أوكلت مهمة إدارة المكتبة للوزارة بعد وفاته، تم تسليم المكتبة لها بدون فهارس، ولم تقم الوزارة والهيئة من بعدها بفهرسة الكتب، ولم يشغلهم هذا الأمر، إذ يبدو أن فكرة المكتبة الخالية من الفهارس أعجبتهم كثيرا، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى ستجد أن موظفي المكتبة مرتاحون لغياب الفهارس والسجلات، لن يستطيع أحد إثبات ضياع كتاب أو سرقة مجلد أبدا، كما أن مسؤولي الهيئة لن يُتهموا أبداً بتبديد العهدة أو بإهمال ممتلكات حكومية، ألا تعلم شيئاً عن أرشيفات الصحف الخالية؟ حاول أن تبحث في أرشيف جريدة حكومية غير الأهرام، حاول أن تجد عدداً ما من الجريدة الذي صدر في الستينيات مثلا، إذا كنت محظوظا، فقد لا تجد المجلد بأكمله، تخيل أن مجلداً كاملاً ــ يحوي

عشرات الأعداد ـــ مفقود من الأرشيف، أي فضيحة هذه وأنت تتساءل الآن عن الوضع المشجع للسرقة هنا؟ اعلم أيضاً أن المؤسس ـــ واقف المكتبةـــ توقع سرقة بعض الكتب في وقت ما، وأنه غض بصره عن هذا الفعل، ظناً منه أن السارق لابد وأنه معتن بالكتاب أيّما عناية، أو أنه بائعه لمهتم آخر، الأمر الذي يؤدي إلى تنقل الكتاب من الحيز الضيق للمكتبة إلى حيز أكثر اتساعاً: العالم في الخارج.

يبقى أن تعرف معلومة أخيرة، فالمكتبة قامت على التبرعات وستستمر على التبرعات، قديما كان الناس يهدون المكتبة كتباً موقوفة لله تعالى، ثم تلا ذلك أناس أتوا لإهداء كتبهم غير ملتفتين لفكرة وقف الكتب التي ماتت مع الزمن، ذلك أن الكثير من المؤلفين والكتاب يأتون هنا لإهداء نسخ من كتبهم المنشورة حديثا؛ الكتاب يعتقدون أن وجود كتبهم هنا فأل حسن، كتاب مصر المشهورين كانوا حريصين على ذلك، بعضهم كان يهدي المكتبة نسخاً من كتابه فور صدوره، يأتي أحدُهم ويحرص على وضع النسخة على الرف بين الكتب، هناك اعتقاد سائد بينهم أن الكتب الموجودة في المكتبة ستترجم حتماً، سيأتي مترجمٌ مجهولٌ ليقرأ الكتاب أو الرواية أو الديوان ويستمتع به فيقرر ترجمته، وربما تولت دار نشر محترمة نشر أعمال الكاتب المترجمة، وكانت الأماني دائما تتحقق.

ستجد هنا الكثير من الترجمات لروايات مصرية وعربية، بلغات شهيرة وأخرى مغمورة، ولغات قد لا تسمع بها إطلاقاً، وكتباً عن الفلسفة الإسلامية مترجمة إلى التشيكية، أو الصربية، أو السواحيلية. قد يصيبك الدوار لكثرة ما ستجد من لغات هنا، لكن هذه العادة اندثرت مع احتضار المكتبة، لا أذكر آخر مرة رأيت أحدهم يأتي متبرعاً بكتبه، يبدو أن تلك الأسطورة فقدت مصداقيتها، وأصبحت مثاراً للسخرية في جيلكم غير المؤمن بالغيبيات، وأيا كان الحال، يكفي ما في المكان الآن من المجلدات، فالمكتبة لم تعد تتسع لورقة أخرى، والزوار لا يطلبون أكثر من ذلك"

أبلغته بميعاد الاحتفال، وأعلمته أيضا بعنوان سكني، اكتشف أننا جيران نسكن الحي نفسه، أخبرته بوجوب الكحول في مثل هذه الحفلات، وأن البحر يحب الزيادة، وأنها علامة على الإيثار والمحبة، ولما وجدت على وجهه علامات الرضا، واطمأننت لقدومه، عدت إلى الآخرين لأفعل الشيء نفسه، لم أحتفل منذ مدة طويلة، أنتظر اليوم المشهود بفارغ الصبر.

شاهر

يسألني الأستاذ عبد الرحمن: ما الأخبار؟ ولا أعلم كيف أرد عليه فأتهرب، ويُلِحُّ في السؤال ببروده المعهود، ويخبرني أن هذه المهمة امتحان حقيقي لي ولإخلاصي في العمل، وأن التقرير الذي سأكتبه سيعليني في عينه وأعين الرؤساء، أو يترل بي إلى الدرك الأسفل من الهيئة. هيئة الأوقاف تُنظر إليَّ بعين الترقب، ويُضفي عبد الرحمن أفندي أهمية قصوى على ما يراه الجميع تسلية وشغلاً لوقت الفراغ، عملُنا بعيدٌ تماماً عن الإتقان أو الإخلاص، وعندما تسند مهمة خارجية – مثل هذه – إلى شخص ما، فإنه عادة يتذمر ويحاول الإفلات منها، الخروج من المكتب له عواقبه ومصاريفه، الغياب عن النميمة، وقراءة الصحف، والإفطار الجماعي، كلها تؤدي إلى أعراض تشبه أعراض الانسحاب، أفيونة الوظيفة سيطرت علينا تماما.

يحاول عبد الرحمن أن يفهم "اتجاه التقرير فأتظاهر بالغباء وأسأله عن معنى ما قال، ويستبدل ابتسامته بوجه جامد ويسأل في وضوح عما سأكتب، وعن التوصية النهائية، وانتظر اللحظة منذ البداية؛ لأبدأ في عرض حالي المتذمر الغاضب، تثقل المهمة كاهلي وتؤرقني وتضيع وقتي الثمين الذي تستفيد منه الهيئة وأنا جالس على المكتب.

بعد وصلة الشكوى الفصيحة أتعرق سائلاً نفسي: لم قلت هذا اكلام؟ اليوم وعلى خلاف الأيام الأولى، أرغب في الذهاب إلى اكان وقضاء وقتي فيه، أريد أن أتعرف على د سيد أكثر وأكثر. اور أصبح مكاني المفضل، أود التعرف على باقي زوار المكتبة، لا أبهم أبداً شكواي غير المنطقية من المهمة، لعله رد فعل دفاعي؟ أم أنني اتدت على الشكوى والرفض؟ لا معنى للتراجع الآن، إبداء الرضا فِ غير محله، قد يشك الأستاذ عبد الرحمن في قواي العقلية إذا ما بلتُ رأيي في التو، سأستمر في مناورة الشكوى والرضا، وأخبره بأني م ذلك ورغم كل ما سبق راض عن المهمة، وأبذل فيها كل وقتي، وبهوداتي منصبة على كتابة التقرير الوافي الشافي، الذي سيرضيه حماً وصدقاً. وأنا في الحقيقة لا أظن أن عبد الرحمن أفندي غبي أو مغفل، فهو يفهم تماماً مناورات مرؤوسيه، مناورة الشكوى والرضا السهيرة والمعتادة والمتكررة التي يتقبلها بصدر رحب، فهو يفهمها تماً وطالما مارسها، بل وما زال يمارسها في مستوى وظيفي آخر. يتهم عبد الرحمن أفندي مناورتي ويبدو أنه سيرفع قبعته احتراماً لي عى إتقاني للمناورة، وعلى إطالة مدة الشكوى، وإظهار الضرر وغضب على ما يحدث، وإيضاح ما في المهمة من عنت وانعدام منطق، وفي الوقت الذي ترتفع فيه وتيرة الشكوى إلى الحدود القصوى، أبدأ في التملق وإظهار الخضوع والاستكانة، تأكيدا للمبايعة ورضا بالمقسوم، أنا أستاذ ورئيس قسم!! أندهش من مقدار احترافي

وإتقاني للمناورات، أقوم بالمناورة بشكل تلقائي طبيعي بلا تعمد أو تدبير، أكتفي فقط بالاسترسال في الكلام مبتعداً عن مشاعري الحقيقة، حتى أني دغدغت نفسي لوهلة قصيرة، والحمد لله، فلو مارست مناورة أخرى – في الحقيقة لا توجد مناورات أخرى – لظن عبد الرحمن أفندي أني ما زلت لا أفهم سياسة الهيئة وأوامر الرؤساء.

ولكني لا أصبر على إجراء الطبطبة والتفاهم الذي يصر هو على تمريره، أنا أفهم أن الإجراء رد فعل طبيعي على المناورة، ويظن الريس أن عدم تمرير الإجراء قد يسبب توترا في الوسط المحيط، لا يا أخي لن أتوتر، أفهم لكماتك وطبطبتك وإبداء تعاطفك، وأتنبأ بما تقوله ولا حاجة للاستطرادات اللانهائية التي تشغلني بها الآن. يحرص الريس على إظهار مدى براعته وكيف أنه أستاذ ورئيس قسم مثلي تماما، ففي استطاعته عدم تمرير الإجراء؛ ليمرره مرؤوس آخر أو زميل لي. يبدأ في الطبطبة مصحوبة بكلمة معلهش، وإبداء التعاطف مصحوبا بالاعتراف بأننا كلنا عرايا في حلة واحدة، وإذا أظهر بعضهم منا التذمر سيتم سلقنا كالأرز. لم يضرب لي الأستاذ عبد الرحمن مثال الحلة، فهو مثال سوقي لا يذكره إلا زميل متعفن، ولا يصح للريس ذكره، بل كان عطوفاً محباً حنوناً، مراعياً لما يصيب الواحد منا من اكتئاب وإحباط وأمراض نفسية هو من سببها ونماها. وهكذا تنتهي الجلسة بلا استنتاجات، ولا فائدة تذكر، وأكسجين

أحرقته أنا، وسجائر أحرقها هو، ووقت ضائع وكلام كثير تسبب في جفاف حلقي. يقول الأستاذ عبد الرحمن جملته الخالدة ــ كل جمله خالده بالطبع ــ اذهب لترى مصلحتك، الله عليك يا أستاذ، ينهي الرجل الحوار بجملة تدل على اهتمامه بمصلحتي، وتحمل في نفس الوقت طلباً رقيقاً مني؛ لأبدأ في الاهتمام بما يسميه مصلحتي، أسلم عليه ببرود وأخرج من المكتب، متجهاً نحو القسم.

المكتبة اليوم خالية أيضاً، أرى الأمين جالساً على مكتبه في المدخل. هل اليوم عطلة رسمية للمكتبة؟ صعدت الدرج إلى الطابق الخامس، لا وجود لأصوات إطلاقاً، والصمت يطبق على المكان، اليوم سأحاول تسجيل ملاحظات أخرى عن المكان، ألاحظ حي بن يقظان الذي تركته على طاولة المطالعة، كسرت القوانين المقدسة! أفتح الكتاب وأقرأ، قرأت القصة منذ مدة، تعجبت عندما علمت أن فيلسوفاً مسلماً يكتب رواية كهذه، هو يفترض أن إنسانا قد خُلق في وقت معاصر له على جزيرة ما بعيدة، لو كتب ابن طفيل مثل هذه الأفكار الآن لاتُهم بالكفر. القراءة تصفي ذهني وتبرز الأفكار التي اختزنتها طوال الأيام الماضية، "الزوار لا يستفيدون بما تحتويه المكتبة بقدر ما يقضون بها وقت فراغهم، المكتبة غير مفيدة للباحث المتخصص، البحث عن كتاب بها مضيعة للوقت والمجهود".

كيف يمكن أن يخلق إنسان هكذا، "في مزيج الطينة التي اجتمع فيها الحار والبارد والرطب واليابس"، خيال علمي ولا شك، خلق جديد يدعي ابن طفيل أنه حدث، ولكنه قبل ذلك يحكي حكاية أكثر منطقية، و يقول إنها ستكون مقنعة لمن لا يصدق حكاية الخلق من الطين التي أوردها، ربما وضع هذه الحبكة الثانية لتكون هذه الحكاية دفاعاً عن نفسه عند اتهامه بتهمة ما. "المكتبة تحتاج إلى إعادة هيكلة، كتابة فهارس تحوي أسماء الكتب والدوريات، الكتب تحتاج إلى إعادة تصنيفها طبقاً للقواعد المعروفة، عندها فقط يمكن للمكتبة أن تكون مفيدة" أما الخيال العلمي الأكبر فهو اكتشاف "حي للخالق بلا رسالة أو نبوة أو وحي أو أي شيء آخر، فقط من خلال مشاهداته وملاحظاته، بدأت الاكتشافات بموت الظبية التي ربته، واكتشافه وجود "روح" لكل المخلوقات. "تحوي المكتبة مئات الكتب والدوريات المهمة، والتي قد لا نجد لها نسخا في أماكن أخرى" وبالتدريج ومن خلال مشاهداته يدرك وجود الخالق. "من ضمن تلك الكتب، كتب كثيرة بلغات أوربية وآسيوية مختلفة ومجهولة، تحتاج إلى متخصصين للتعرف عليها وتصنيفها" الفكرة خيالية نعم، وأيضا مثيرة للشكوك، فكرة كهذه ستغضب الكثيرين، فالمتدين سيعترض بشدة ويؤكد أننا عرفنا الخالق بواسطة الأنبياء، وأن الكلام عن استنتاج كهذا مخالف لما هو معروف. أما الملحد فسيسخر من الفكرة ويعلن أن النتيجة المنطقية لتفكير كهذا هي اكتشاف

غياب الخالق، وهكذا سيجتمع الخصوم على كراهية الفكرة. "المكتبة بشكل عام مفيدة لعدد محدود من الناس، لا يعلم مكانها أحد، عنوانها غير مدرج في أي دليل ثقافي، ويجب وضعها على الخريطة الثقافية للقاهرة"

تتجه ملاحظاتي اتجاهاً غريباً، أنا هنا لأوصي بهدم المكتبة، و لم آتي لكي أوصي بتطوير المكتبة وتحسين مستواها، هذا الكلام عن التصنيف والترتيب والتطوير والفهرسة، كل ما كتبته، أتى متأخراً جداً، لماذا لم ترسل هيئة الأوقاف لجنة لتطوير المكتبة؟ انتظروا طويلاً و لم يتعاملوا مع المكتبة على أنها ملك لهم، أو تعاملوا مع المكتبة على أنها مبنى في أحد شوارع العباسية تصرف له ميزانية سنوية وكفى. سنوات والأمر كذلك، أتى المترو ليكون هو السبب في إرسال موظف واحد – بدلاً من اللجنة – لكتابة التقرير، حسب وجهة نظر الحكومة، المترو أهم من المكتبة، والتقرير استكمال لأوراق مهمة يجب تضمينها في ملف قرار الهدم، تم حسم الأمر في المكاتب العليا وعلينا ملء الأوراق. وأنا الآن أكتب موصياً بتطوير المكتبة! حتى الآن لا أعرف ماذا سيكون مصير التقرير، وما مصير المكتبة؟ هل ستأتي قوة إلهية لتحول مسار المترو وتبقى المكتبة مكانها؟ أم ستسوء الأحوال لأقصى درجة؟

تلح علي فكرة السرقة منذ أيام، أحدد الثغرات التي يمكنني من خلالها سرقة كتاب ما؛ سأثبت أن السرقة أمرٌ سهلٌ اليوم، سأنتقي كتاباً وسأخرج به من المكتبة بدون أن يلاحظ أحد. الأمين هنا وحده، ولا أحد من الزوار المعتادين موجود. المكتبة اليوم تغص بالكتب، غرف الدور الأخير مليئة ولامكان لكتاب آخر. خلال عمر المكتبة زاد عدد الكتب بسبب التبرعات، وساهم المؤلفون أيضا بإهداءاتهم في إنماء المكتبة، ظنا منهم أن الكتب الموضوعة هنا ستترجم، بـــ: "بركة المكتبة"، الكتاب العقلانيون يؤمنون بتلك البركة!

أدرك الآن الحقيقة لوحدي، تبرعات الكتب ليست تبرعات حقيقية كما توحي الكلمة، وإنما تخلص من كتب موروثة أو مهملة في أحد جوانب البيت. مثلاً، مكتبة أبي التي تشغل مساحة كبيرة، أو كتب أمي التي لا تتسق مع موضة الديكور هذه الأيام، ومع الرغبة في الظهور بمظهر المحسن الكريم، المحب للثقافة، الحريص على المنفعة، أخذ الناس يلقون بكتبهم القديمة وكتب آبائهم إلى المكتبة، على أنها تبرعات في الظاهر. على الجانب الآخر، قل عدد رواد المكتبة إلى أدنى حد، ومن ثم قلّت السرقات من المكتبة، إذا كان الناس يتخلصون من كتبهم بهذه الطريقة، من إذن سيأتي ليسرقها؟ وهكذا زاد عدد الكتب هنا حتى تكدست ولم يعد هناك مكان لكتاب جديد. أشعر أن د سيد يحثني على السرقة، ويشجعني على أخذ كتاب لبيتي، بل

وعلى عدم إعادته مرة أخرى، وفي الأحوال العادية سأظن أنه يحاول الإيقاع بي، ويحاول اصطيادي متلبسا بالسرقة، ليفضحني بالجرم، ليمنعني من دخول المكان مرة أخرى، ربما ليبتزني؟ أطرد الأفكار السوداوية من رأسي وأحاول اختيار كتاب ليكون ملكاً لي.

أنا في حيرة، كيف أختار كتابا بين عشرين ألف كتاب أو أكثر؟ العناوين كثيرة جداً، وبعضها مكتوب بلغة أظنها المسمارية!! من يكتب كتاباً في يومنا هذا بالمسمارية؟ أمشي بجانب الرف وأتابع اللغات التي كتبت بها العناوين، عربية، عربية، مجهولة، انجليزية، عربية، مجهولة، صينية؟، لاتينية!، عربية، انجليزية، مجهولة، مجهولة، مجهولة!، الرحمة! توقفت عن القراءة لأقرر أني سآخذ الكتاب العربي التالي بلا تفكير، سأقرأ عنوانه فقط، لن أفتحه لأتعرف على محتواه، ثم آخذه معي خارج المكان.

عربية! كتاب الصيرفيني؛ أخرجت الكتاب الضخم من على الرف، العنوان مكتوب أعلى الغلاف في حيز ضيق، وباقي الغلاف يشغله رسم ملون لعملية تحول، رجل وامرأة في وضعية جنسية، يتحولان بالتدريج إلى تمساح! مثيرٌ بما فيه الكفاية، وضعت الكتاب الضخم بين بطني والبنطلون، أغطيه بـــالتي شيرت، ليتني لبست قميصاً اليوم. حالما أفعل ذلك أبدأ في التعرق، ويجف حلقي بسرعة وأتوتر، وأتلفت حولي كاللصوص، ولماذا كَ ؟، أنا فعلاً لص، سأنتظر

قليلاً ولا أفعل شيئاً، أحمل دفتر الملاحظات وأنزل للأسفل، لا أجد الأمين على مكتبه، أفتح باب المنور، أنظر إلى الداخل فلا أجد أحداً هنا، أعود إلى مكتب الأمين، ملتفتاً حوْلي مرة أخرى، منصتاً إلى الصمت، منادياً على الأمين، أصيح وأنا انادي عليه مرة أخرى، أصرخ بكل ما أوتيت من قوة، ولا أحد يرد، أغني اسمه وأدندنه، اسمه طويل و يصلح لأن يكون مقطعاً من أغنية. أصيح ثانية، أغامر وأنا أصرخ، أبو المعاطي يا حمار!، يرن صدى الكلمة في المكان. ألاحظ وجود عدد من الدعاوى لجاليري على مكتب الأمين، أقرأ الدعوة وألتفت إلى اسم المدير المطبوع عليها، أحمد عبد الرحيم هو المسؤول عن الجاليري، هو لطيف جدا، الرجل يهتم بالفن وهو ما لم أتوقعه من رجل يعمل هنا أبداً، وربما فيه ما يفسر أناقته واهتمامه بمظهره. وضعت أوراقي في الحقيبة ومعها الدعوة والكتاب وعلقتها في كتفي، أضع يداي في جيبي وأخرج من المكتبة و"قلبي طرب"

أفكر، أأعود مرة أخرى مستغلاً الوضع لآخذ كتبا أخرى؟

إن اليوم يوم استثنائي، و"يتطلب أفعالا استثنائية"، أه والله. سأمر على بيتنا القديم، البيت الخالي المتهدم، أمر على الأطلال، كما فعل الشعراء العرب يوما، كانت تلك الموضة وقتها، كتبت قصيدة جديدة يا أخا العرب، هلم فأسمعنا إياها! ويبدأ الشاعر في تلاوة ما قرض. يجب أن يأتي على ذكر مكان حبيبته، حيث كانت تعيش، أو

حيث حطت رحال قبيلتها وجماعتها، ذلك المكان الذي أصبح خَربا الآن. يستمع الناس إليه، ويبدأون في حفظ القصيدة، ولا أنكر أنهم ربما استبدلوا لفظة بأخرى، ألعاب الذاكرة ولوازم الإثارة وتضخيم الشائعات، في النهاية الثقافة العربية كانت شفاهية ولا تزال. في اليوم التالي تبدأ قبيلة المحبوبة في إثارة المشاكل، الولد يحب إحدى بناتنا، الويل له! وربما تطورت الأمور فتقوم حرب ما بسبب قصيدة، أو بسبب المرور على أبي قتادة، وتذكر بهانة الساكنة هناك.

منذ عدة سنوات كنت مستقراً في شبرا، كنت أقيم مع خالي منذ كنت طفلا، كان المبنى في شبرا المتواضعة، في شارع عبيد، يملكه خالي ويؤجر شقق المبنى حسب قانون الإيجار القديم، نسكن في الطابق الثالث، بعيدين عن الشارع، وأيضا بعيدين عن حر الشمس، يعلونا طابقين اثنين، بحسب خالي هذا أفضل طابق للسكنى. كان خالي يضيق ذرعاً بالمستأجرين ويشتكي دائما من إيراد العمارة القليل الذي يأتيه منهم، ظل هكذا مدة طويلة حتى فقد الاهتمام و لم تعد شكواه مجدية. عندما ضرب الحظ ضربته أخيراً، جاءتنا خطابات من الحي تطلب منا إخلاء المبنى استعداداً لهدمه وتحويل المنطقة لمنطقة جذب سياحي واستثماري، وكلام من هذه النوعية. اكتشفنا أن أحد "الكبار اشترى قطعة أرض ضخمة من الحكومة، بيتنا كان يقع في نطاقها، على أساس أن تتولى الحكومة مسؤولية إخلائها، وتعويض

أصحاب الأراضي والسكان، والسر كان في أننا نبعد عن النيل مسافة كيلومتر واحد، والأرض المباعة تمتد من شارع عبيد وحتى ضفة النهر، بدا للكبير أنها صفقة رابحة، فلن يتورط هو في مشاكل إخلاء السكان، بل ستتولى الحكومة الأمر بطريقتها. وفعلاً بدأت الحكومة في دفع تعويضات لأصحاب العمارات وللمستأجرين على حد سواء. تجمع لدى خالي مبلغ ضخم من المال، تعويض عن العمارة كاملة، بينما كانت تعويضات المستأجرين هزيلة لا تكفي لشراء شقق أخرى، أظن أن خالي كان سعيداً وشامتاً في مستأجريه، لم يعترض على قرار الإخلاء والهدم، ولما طلب السكان منه الاعتراض، أخبرهم أنه معترض على قيمة الإيجار منذ عشرين عاماً، ولم يحرك أحدهم ساكناً، فلم يتحرك هو الآن؟

وعلى الرغم من سلبيته الانتقامية، وعلى الرغم من كراهيته التدريجية للمبنى، التي تصاعدت حتى وصلت إلى مرحلة حرجة في السنوات الأخيرة، حضر خالي للعمارة، بعد أن نقل المستأجرون متاعهم، وقبل أن يسلمه هو للحكومة، وقام بفك كل ما يمكن فكه من العمارة، الأبواب والشبابيك وأطقم الحمامات وحديد السلالم، كل ما يمكن الانتفاع به، تم فكه من مكانه وتكويمه على الرصيف أمام العمارة. كان قد اتفق مع تاجر روبابيكيا على بيع هذه الكراكيب له، لا أفهم كيف سيستفيد أحدهم من كل هذا. أذكر

الناجر الصعيدي جيداً، بعمته الضخمة والخاتم الضخم في خنصره، منقباً بين الكراكيب، متفحصا إياها بعين خبيرة، ثم وقفته أمام خالى وكلامهما معاً لمدة دقيقة أو دقيقتين، بعدها أخرج رزمة من المال من جيبه وأعطاها لخالي، وتصافحا، ثم تحرك كل منهما إلى جهة. هكذا انتهت العمارة ! لم أتوقع ما فعله خالي، لم أكن أظنه طماعاً بهذا الشكل، لما سألته عن ثمن الكراكيب وجدته تافهاً بالقياس للتعويض الذي تلقاه مقابل العمارة ككل، قال لي أنه بنى العمارة بيديه، موفراً كل مليم كان يكسبه، منفقاً ثروة كان قد ورثها عن أبيه، هكذا أضاع هذه الثروة في عمارة، كانت تدر ربحاً ممتازاً في البداية، ثم قلت قيمة الإيجار بالتدريج، حتى لم تعد كافية لدفع عوايد المبنى. قال لي أن كل ما في العمارة ملكه وحق له، وأن الحكومة اشترت منه الأرض، ولا علاقة لها بالعمارة وما تحتويه، وأنه لن يفرط في حقه مهما قل، كنا قد وصلنا لمصر الجديدة حيث انتقل هو، نمشي في الشارع الذي سكن فيه، أوصلته إلى بيته، ومشيت أنا إلى الشقة التي ورثتها عن أبي، كنت قد قررت الانتقال إليها والاستقلال عن خالي.

بعد ذلك بدأ هدم العمارات، كنت أمر على شارع عبيد ليخنقني الغبار الناتج عن التكسير، ويقطع أنفاسي، سحابة صفراء وبيضاء كانت متعلقة بهواء الشارع، لا تتحرك. استمر الهدم حتى وصل إلى عمارتنا، بدأوا في هدم العمارة من السطح، استمروا في

الهدم حتى وصلوا إلى هدم سقف الشقة التي كنت أقيم فيها، ثم توقفت الأعمال، تم هدم الشارع كاملاً، ونقلت معظم المخلفات، بقيت جدران شقتنا بلا سقف، فكرت في أن الكبير الذي اشترى الأرض من الحكومة أعرض عن فكرة الشراء، أو أن الحكومة لم تتلق منه ما وعدها من أموال، أو أن الرجل مات وتراجع ورثته عن تحقيق حلم المشروع السياحي الاستثماري، نهاية غير متوقعة بالمرة.

مازالت العمارة كما هي، شقتنا بلا سقف، يمكنني أن أشاهد السماء، وأطراف الجدران غير المتساوية، وأسياخ الحديد المرفوعة إلى السماء، حولنا خرابة ضخمة من مخلفات التكسير، وتحتي بلاط الأرضية وقد غطاه تراب كثيف، على هذه الحال منذ ثلاث سنوات. كنت أقف في غرفة الأولاد، التي تَشارَكْتُها مع ابن خالي لمدة طويلة، شاهدت ما كتبته على الحائط يوما، حينما كنت أذاكر للثانوية، سجلت على الحائط بخط سميك كم أنا محبط وخائف من الامتحان، وأن هذه أسوأ أيام حياتي، وأني أتمنى أن أموت حتى أنتهي من هذا العذاب، بدا لي أن "هذا العذاب" كانت مبالغة درامية، وأن الأمور الآن أسوأ بكثير. أشاهد المكتبة وقد هدم نصفها فقط، وأصبحت أطلالاً كبيتي القديم، بينما محطة المترو تقبع على الناحية الأخرى من الشارع، أو قبل المكتبة بعدة أمتار، لم يكن هناك سبب للهدم في الأصل، خطأ الهندسي وارد! أحدهم أخطأ في قراءة الخريطة وطلب

هدم هذه المكتبة ظناً منه أنها تقع مكان المحطة. ثم تم تدارك الخطأ قبل الانتهاء من الهدم، فتوقف الهدم و تركوها هكذا. ستتحول أنقاض المكتبة بعدها إلى وكر للصوص ومخزن لتجار المخدرات، تماماً كما يحكي كل من سكن فيلا في مصر الجديدة ثم تركها، الكذبة المتداولة والتي ينسبها كل لنفسه بعنا الفيلا لشخص تبين بعد ذلك أنه تاجر مخدرات جعلها مخزن للحشيش وهو الآن في السجن وينتهي الأمر بأن من ابتاع الفيلا قد سُجن، وكأن عقلهم الباطن يرفض أن يستولي أحد على الفيلا بدون عقاب رادع.

سيد

أعياني ما كتبه هذا المقرف، أحاول قراءة واستيعاب هذه الرواية منذ أيام، وكل ما قرأته كان طلاسم تتلوها طلاسم. طلاسم في الأصل العربي والآخر المترجم. كنت يوما ما أعيب على المترجمين ما يقومون به من جرائم في حق الكتاب، اليوم تبدل الوضع وأصبحت ألوم الكتاب على ما يفعلوه بنا. خلال المائتي صفحة لم أقرأ سوى مشهد وحيد يتيم، رجل ينتظر امرأة في محطة القطار، ومنولوج طويل غث يدور بخلده أثناء انتظاره، وكأنه ينتظر جودت، ويا لعبث الأقدار، فالمرأة تأتي ويتحاوران عن الطقس وخطوط

المحمول وأيهم أكثر توفيراً، ثم يعرج الحديث إلى سفاح المعادي – أي سفاح يقصد؟ وتخاريف أخرى لم أفهم علاقتها بباقي الرواية، الحقيقة أنها لا رواية، فالنص لا يحوي حبكة درامية ولا تصاعداً للأحداث ولا وصفاً للشخصيات ولا شخصيات من الأصل، كل ما هنالك منولوج يتبعه منولوج وبينهما حوارات هزيلة، لذلك من المنطقي أن يكون الحوار فيها لاحواريا. ربما يظن الكاتب أنه يسجل تيار وعي شخصياته، ولكن لا!! الكاتب يتعمد إزالة أي أحداث أو شخصيات أو أي شيء متعارف عليه في الرواية من هذا النص، الرجل يحطم أساليب السرد المعتادة واحدة وراء أخرى، وكأن هذا هو أسلوبه الأوحد، الأسلوب الجديد. والنص مشهور هذه الأيام، أنا أمسك الآن ترجمته إلى الإنجليزية، التي حاولت قراءتها أيضا وفشلت، كُتب على الغلاف رواية مصرية حديثة، ولا ريب أن المترجم الأجنبي اعتقد أنه نص بالغ الكمال، فهو لم يفهمه، ولم يفكك أحاجيه ويكشف أسراره، ولذلك عكف على ترجمته ونقله للإنجليزية؛ ليتعرف أبناء الامبراطورية العظمى على أدب من كانوا يحتلونهم منذ مدة قصيرة.

أعود إلى النص العربي فأجد أن الفقرات المبهمة في هذا مبهمة أيضا في ذاك، وأن المؤلف جمع كلمات وكون جملاً وفقرات، بدون هدف أو غاية، النص غير مفهوم ولا يعني شيئاً، ولهذا أتت الترجمة

بلا معنى ومغلقة ومستحيلة الفهم، بالطبع، فالنص الباهت هذا لن يستحيل رواية بمجرد الترجمة، حتى ولو ترجمه كائن علوي أو قوة سحرية! ببساطة عدم وجود معنى للنص المترجم بإخلاص يعني عدم وجود معنى للنص الأصلي. يتحول المترجم هنا من خائن للنص إلى عميل له، ومروج، ومهرج، وأراجوز، ومعلن، ومطيب، ومسوق، ومسوء. قديماً كان المترجم يعيد كتابة النص الأصلي بلغته، ويحتفظ بالشخصيات والأحداث ولكنه يغير في جمل الحوار المكتوبة باللغة ألف لتتماشى مع اللغة باء. قد يضيف من أفكاره للنص ما يظن أنها تفسره، وهكذا يخلق نصاً آخر موازياً، وحكاية أخرى يحكيها على ضوء فهمه للنص الأصلي. وأخيراً أخذ المترجمون يحذفون صفحات بأكملها وأحداث بحجة أنها لا تتماشى مع ثقافة قاريء النص المترجم، وكأن العرب لا يمارسون الجنس ولا يشربون الخمر، وكأن المصريين لا يسبون الدين واللبنانيين لا يسبون الأخت، وكلنا أناس طاهرون ستقشعر أبداننا من كلمات سوقي ألماني أو خنفس أمريكي. أما القلة فقط فيبذلون كل الجهد لإيضاح المعنى بالتدقيق في اختيار الكلمات، وإيصال ثقافة الآخر بالشروح، والتعرفة بالأماكن وأسماء الأعلام بالهوامش، حتى تتحول ترجماتهم إلى دراسات في التاريخ والثقافة، وربما زادت الهوامش والشروح حتى زادت على النص المترجم، فيصبح النص مترهلاً مملاً، وكما هو متوقع، سيأنف الناس قراءته. في النهاية وبعد قراءة الكثير، خلصت إلى أن الترجمة الكاملة

مستحيلة، إلا إذا قام كائن كوني بالترجمة، البشر لا يصلحون لهذا الأمر.

أما مترجم هذه اللارواية فعميل، ولا شك عندي في أنه يعرف المؤلف والناشر حق المعرفة، لا تلك المعرفة السطحية التي تجعله يترجم كصنايعي/ أجير ليحصل في النهاية على أجره، وقد لا يهتم بذكر اسمه على غلاف الكتاب كمترجم، بل تلك المعرفة التي تتيح له التآمر مع الاثنين لإنتاج ترجمة غير مفهومة لنص غير مفهوم، ولا ريب أنهم جميعاً اتفقوا على خداع الناس، فقال الأول: سأكتب نصا غير مفهوم، لنر رد فعل الناس ممن سيقرأونه وسيخجلون من الاعتراف بعدم الفهم، فيبدون إعجابهم وغبطتهم بالنص، ومن ثم سيصيب مقدارا من الشهرة ويشير إلى الناس بالبنان، والآخر تخيل نفسه ناشراً شهيراً، ينشر أمهات الكتب، وجديد المؤلفات، وحديث المنشورات، اتفق مع الأول على طباعة الكتاب، وقال إنه سيكون كريماً فلن يتلقى منه أموالاً، ولن يجبره على شراء عدد من النسخ، بل إن روايته — لاروايته — الجديدة ستزلزل عرش روائيي مصر، فهي لائقة طلية، ذات لغة جلية. ثم أتى المترجم الصعلوك، المطرود من بلاده لفشله، القادم إلى مصر ليعيش فهلويا، فترجم اللارواية؛ لأن النص المنقول للغة أخرى نص لابد وأنه رائق، مكتوب بجهد وعرق، ولابد أن يقرأه الغربي ليتعرف على طريقة تفكير العربي، ولابد أن يعود العربي

لقراءة النص الأصلي ليتعرف ما الذي يقرأه الغربي ليتعرف على العربي، وهكذا تم مخطط الأوغاد، عليكم اللعنة جميعا!

أعاود قراءة الأوديسة، ترجمات الأوديسة تعددت حتى صرت أجهل بعضها، وأنا الذي كنت أحفظ ما قرأته منها عن ظهر قلب، وأتلوها في طلاقة الحافظ المستظهر، ولا يعني ذلك أني لم أشعر بما شعر به أبطالها، ولم أفهم ما يعتمل في نفس هوميروس حين كتبها، بل كنت متقلباً بين آراء مترجميها إلى العربية وأهوائهم، أولئك اللذين فتحوا عيني على ما فيها من حياة، وسائحاً بين الكلمات والتعبيرات الإنجليزية لمترجميها الإنجليز، متعلماً الإنجليزية الحقة. مسافراً مع عوليس في رحلته، أساعده حينما يقاتل أو حينما يهرب، وأتآمر معه حينما يتآمر، وأصل معه إلى بلاده وأشاركه دقة التصويب وقوة الذراع، وأستقر أخيراً بعد عشر سنوات من الترحال؛ لأبدأ الترحال مرة أخرى وأعيد القراءة. كيف تجرأت وقرأت تلك الترجمة الغثة لذلك النص الرث ؟ كنت قد عاهدت نفسي على الابتعاد عن جديد المؤلفين في مصر، خاصة تلك اللاحدثية الجديدة التي شغلونا بها. وعلى غير العادة، أتى مؤلف هذه اللارواية ليضع في المكتبة نسخة عربية وأخرى انجليزية لروايته!! لم أفهم ماذا يروم هذا الغبي؟ أيظن أنها قد تترجم إلى لغة وسيطة بين اللغتين؟، فتحت النسخة العربية وأنهيتها في جلستين، استغلق الكتاب أمامي وأعدت القراءة، وأنهيتها

في وقت أطول وقلت: إن الوهن قد أصابني وتضعضعت أركاني، وصرت لا أقدر على استيعاب ما في الكتب من أفكار. قرأت النص الإنجليزي فأصابني الغم، وهكذا أخذت أتنقل بين النصين حتى أعياني جهل مؤلفها ومترجمها، كان يجب علي التنبؤ بجهله، حينما أتى إلى المكتبة متبرعاً بالرواية وترجمتها. أخذت النسختين معي إلى البيت، وحسناً فعلت، ولكن لا مكان لهما في المكتبة، سيطيران معا عبر النافذة إلى فضاء الشارع، ترفعهما الريح وتطيِّرهما إلى أقرب مزبلة. هه، لا يطيران كما ظننت ولكنهما يسقطان هناك على الأسفلت، تمر عليها السيارات، ولا يلتفت أحد للورق المتناثر.

أقرأ عوليس، أنتهي بما بدأت به، تماماً كالدائرة، كما قيامة فينيجان، تبدأ الدائرة في نقطة لتنتهي بعد دورانها في النقطة ذاتها، تنغلق وفي تمام انغلاقها فناؤها ونهايتها، سكونها في هيئة جثة، وفي هذه الجثة سرد لتاريخها الذي حدث بينما كانت تنغلق، الحياة ليست خيطاً يفتل لينقطع بعد فترة، بل دائرة ترسم ثم تنغلق لتظل شاهدة على ما حدث. لا أفهم انشغالي بما كتب جويس هذه الأيام. أقرؤه بلغته ولا أتعثر كما فعلت في السابق، أحلق ذقني بالموسي كما فعل بوك، آكل السجق والكلاوي والكبد كما فعل بلوم، هناك غشاوة على عيني، سحابة بيضاء تظللها، نور السيارات والشوارع ليلاً يصبح مبهرا، الضياء يشتتني ليلاً ويشغلني عما حولي، لكنه ممتع ومثير

للتأمل. هل سأفقد عيناً وأغطيها بعصابة سوداء؟ لم أتزوج ولكني أشعر بخيانة دولوريس – بينولبي، لبلوم – عوليس، أسمع أصوات الأوركسترا وهي تستعد لبدء العزف: كمانات، وفلوتات، وصنوج، وطبول، كلها في ضوضاء محيرة، صوت مرسوم عبر الكلمات، فترة تصمت قصيرة، ثم تبدأ الأوركسترا في العزف، أي عبقرية تلك؟

لا أستطيع مقاومة فينجان، أستمتع بقراءة الكلمات الغريبة بصوت عال، أستمع إلى جرسها وأنا أتلوها، أشاهد جويس أمام نافذته والشمس تغرب أمامه، يستعد للكتابة ويقرأ الكلمات بصوت عال؛ يشعر بها، ثم يدونها حسب النطق، مدمراً لغة الإنجليز مستبدلاً إياها بلغة صوتية وكلمات مكونة من مائة حرف. يستبدل الكلمات بأصوات يدونها للناس؛ لكي يدركوا العلاقة بين الموسيقى والأحرف. يخلط أحلام شخصياته بدبلن. هل كنت جويس في ذلك الوقت؟ هل حلت روحه في جسدي عند ولادتي؟ ولدتُ سنة وفاته، ولا أستطيع مقاومة مطالعة كتبه من حين لآخر، وعلى الرغم من تمكني من الإنجليزية عندما بدأت أقرأ عوليس، فقد أصابتني لغته بالحيرة. ومع كرور الوقت وإعادة القراءة، كنت أشاهد دبلن من خلال كلماته، كأنها لوحة معلقة أمامي، أتعرف على شخصياتها التي تتحرك أمامي. هل تناسخت روح جويس فيّ؟ أتابع القراءة مستمتعاً بالنص، أشعر مرة أخرى بريشة القلم وهي تنحني تحت ضغط أصابعي، وبقعة حبر

رج من الريشة ليتشربها الورق وترسم دائرة سوداء، تتسع بتباطؤ، حتى تتوقف تماماً. أضع الريشة على الورقة في مكان آخر، وأتأمل البقعة الجديدة وهي تتسع، وأشعر ببرد دبلن القاسي في عظامي، أنا لا أتعمد تعقيد كتاباتي، فالأفكار تأتيني طوعاً لأكتبها، ضوء عيني يذهب تدريجيا، أبدأ في الاعتماد على سمعي، أنطق صوت الرعد وأنصت إليه. تنطبق شفتاي وتنفتحان وتتبادلان الباء والدال بينما غرغرة تصدر من حلقي وأضم شفتاي لأنطق ميما ونونا يتهز لساني بالراء ثم تظهر الميم والنون مرة أخرى وتخرج الهاء والتاء ويتوقف الصوت تماما عند الكاف أضم شفتاي وأفتحهما وأخرج أصواتاً من حنجرتي وأشهق هواء ليدخل من أنفي وفمي محدثاً صوتاً ذي جلجلة واهتزازات ترعش جدار أنفي أزوم مطلقاً زاياً حادة تتبعها الميم طويلة مملة ويتحول الصوت إلى همهمة حلقية تأتي من صدري وتستمر لمدة قصيرة لتظهر السين في صوت حاد آخر وشفتاي مفتوحتان، وأجرب إغلاقهما وفتحهما بشكل متوالي لتظهر السين وتختفي.

أكتب الكلمة الضخمة وأشعر بالغبطة، لقد سجلت صوت الرعد لأول مرة في التاريخ.

كلا، لم أكن جويس في يوم من الأيام، على الأرجح روحي كانت تسري في جسد تمساح نيلي، أشعر بتعاطف كامل مع تلك

المخلوقات الهادئة، الساكنة معظم الوقت، ذات الظهور الطويلة المزركشة، جبال ووديان وتلال، كلها حادة الزوايا وبلا لون محدد، لا أستمع للهراء المعروف عن شراستها ودموعها وما إلى ذلك. مخلوق بجسد ضخم ولابد من أن يتغذى، وماذا عن البعوض ناقل الأمراض؟ أليس مفترساً؟ كل من أعرفهم كانوا حيوانات يوماً، مدير المكتبة مثلاً كان ضبعاً، وعبد الحليم حارس العمارة كان ولا يزال كلباً، وحنّا الناسخ لابد وأنه كان غراباً، وشاهر ربما كان حوتاً أزرقاً. لا أجد حيواناً اعتاد السكر لأربط بينه وبين علي.

تلح عليّ صورة شخص ما، رجل عرفته مدة من الزمن، أحاول أن أتذكره، أجد صورة ضبابية تتكون في ذهني ولا أستطيع رسم ملامحه، لا أتذكر هل عملت معه يوما؟ هل جاورته؟ هل حاربنا معا؟ أحاول تذكر أشخاص أُخر، ولكن ذاكرتي لا تسعفني، لا عن مرض أو نسيان أو خرف، لكن الأشخاص غير مهمين حقاً، لم يؤثر من قابلتهم خلال حياتي في، كثيرون أصابوني بالضرر، قلة استفدت منهم، منذ زمن وأنا أبتعد عن الناس.

"معارفي كُثر ولا أصحاب لي"، حكمة اتخذتها نبراساً لحياتي. الآن لا تتعدى معارفي في من بالمكتبة وجيراني في العمارة، كل من عرفتهم خلال القتال أو دراسات الموسيقى وتحضير الدكتوراة لا أذكرهم، بل تعمدت نسياهم خلال السنوات الماضية حتى ضاعوا

تماماً، أو إنهم ماتوا الآن وحلت أرواحهم في أجساد أخرى، بهذه الطريقة يتخلص المرء من معارفه المزعجين.

أحب أن أؤَمِّن نفسي دائماً على الرغم من موضوع التناسخ، فمازلت أحتفظ بعملتين معدنيتين، دائماً أضعهما في جيبي، قريبتين من جسدي، قديماً كانا قرشين، ثم زادت قيمتهما بالتدريج حتى أصبحت اليوم أحمل جنيهين لامعين. إذا كان الأمر كما أظن، واستمرت روحي في الانسلاخ إلى أجساد أخرى، فلن أفقد الكثير، فالعملتين ليستا ذاتي قيمة كبيرة، لكني أخاف أن يأتي يوم ما، فأجد روحي على العبَّارة والرجل يطالبني بأجرة العبور، عندها سأنقده الجنيه الذي ادخرته طوال حياتي، ثم أتبعه بالثاني حباً وكرامة. هل يجب أن أدفع الجنيهين؟ لست متأكداً من ذلك، ربما كان هذا موضوع بحث جديد، كيف ندفع مقابل العبور؟ أعملتين و كفى؟ أم أن السوق الرأسمالية تتحكم في أجرة العبارة؟ أما إذا خلا جيبي من الجنيه، فسأظل تائها إلى الأبد، ستظل روحي هائمة في النهر.

شاهر

أحاول أن أنام، لكن الأرق يغلبني وأجلس في السرير دافناً وجهي في راحتي، قديماً كان أبي ينصحني بدندنة أغنية من مقطع

واحد "يا نوم، تعالى" أغنيها حتى يأتي النوم، في ذلك الوقت كان النوم "يأتي بسرعة، الآن لا أستطيع مخاطبة شيء غير موجود، أقوم من مكاني وأتحرك في الشقة مفكراً في بيتنا القديم، خالي وأولاده، ذكرياتي الباهتة عن أبوي، صورة أمي وهي حبلى بي، والقطة الحبلى على الرصيف أسفل العمارة، تتسلل خلفي وتصعد على الدرجات إلى الأعلى، يفتح أحد الجيران باب شقته لتدلف هي بسرعة عبر الفتحة الضيقة، يضع قدمه أمامها ويغلق باب الشقة فتنحشر بين الباب والحلق، تصرخ كصراخ طفل صغير. شهقة وصمت طويل ووجه مغضن ودموع في العين، ثم صراخ مرعوب، أجفل من صراخ الأطفال، أكره ضوضاءهم.

الأطفال في الحضانة المجاورة يتعلمون المشي، يمشون بخطوات صغيرة رافعين أيديهم إلى أعلى كأنهم يرفعون أثقالا، يجرون نحو المربية التي تمد يديها لهم وتصفق حينما يقتربون منها، وتتركهم قليلا لتدخن سيجارة في طرف الجنينة، وبعد قليل تخرج إلى الرصيف وتحرص على غلق الباب لتدخن بلا إزعاج،وتتمشى على الرصيف جيئة وذهاباً، الرصيف خال من المارة وهي تمتص الدخان باستمتاع، كأنها ولد يختلس سيجارة خلف مسرح المدرسة. يرفع الولد السيف على خشبة المسرح، يبارزه الولد الآخر الذي يلعب دور صلاح الدين، طاخ طيخ طوخ، يندمج الولدان في القتال، سينكسر السيف

البلاستيكي من شدة الضربات، تعود الفتاة إلى الجنينة، ثم تذهب إلى الكولدير، تضع يدها تحت الحنفية وتشرب. أضحك، هذه ليست تصرفات شابة تعمل في حضانة، ليست تصرفات فتاة على الإطلاق، ولد شقي يلعب الكرة، ثم يرعف ليضع أنفه تحت حنفية الكولدير عملاً بوصية زميل، يحاول إيقاف الرعاف لكن الدم لازال يترف ويختلط بالماء ليتسرب سائلاً أحمراً خفيفاً على ساعده، يتأمل الماء وهو يودع ساعده ويتساقط من مرفقه على الأرض. ولما اصطدم السيف البلاستيكي بوجه صلاح الدين رمى سيفه وأخذ يبكي، وضع يده على أنفه، لكن لم يترف ولم يصبه شيء، المفاجأة فقط أرعبته. ثار لغط كثير حول المسرحية والأبطال والأحداث، بعد شكوى من ولي الأمر، أو لعله أمر من ولي أمر أكبر، وتم استبدال جورج – ريتشارد، بأحمد – صلاح الدين، وكان هذا أكثر مناسبة للوحدة الوطنية، فأحمد يلبس ملابس حمراء وبيضاء ذات صليب هائل على صدره، وجورج يلبس قرطاساً فضياً على رأسه، والسخام يلوث وجنتيه، كأنه لحية نبتت للعربي. وعلى الرغم من أن صلاح الدين لم يبارز ريتشارد قط، فإن المخرج أخبرنا أن هذا مفيد للمسرحية. أبدأ في الغناء، يا نوم تعالى ولكنه لا يأتي مطلقاً.

أفتح كتاب الصيرفيني، تأليف لويج الصيرفيني، رسومات بالألوان الخشبية لأشياء شديدة الغرابة، أتصفح الكتاب على عجل.

أصابع بشرية تتحول أطرافها إلى رؤوس أقلام، مبانى بأشكل غريبة غير معتادة، كروت لعب لم أر مثلها قط: بلا شايب أو ولد أو جوكر. نباتات غريبة، ساق تحمل نصف ثمرة برتقال مفتوحة في منتصفها حبة عنب بنفسجية، نبات بجذور صغيرة وحبات من الحلوى ملفوفة في أوراق ملونة مكان براعم الازهار، ثم تتقشر الاوراق الملونة لتتفتح الزهرة. أقلام رصاص تخرج من بين بتلات زهرة أخرى، بينما بتلات زهرة ثالثة على شكل رقاب ورؤوس إوز ابيض. كائنات مجهرية دقيقة، بعضها يعيش في ماء الشرب، ليدخل داخل جسم الإنسان ويبدأ في التكاثر داخله، أقرأ النص المكتوب أسفل تلك الرسومات، مكتوب بخط اليد، يشرح باستفاضة مواصفات تلك الكائنات.

أقلب الصفحات، لا أستطيع التنبؤ بما سيأتي، لا أتوقع ما الرسمة القادمة، الرجل يرسم رأس غزال بجذور في باطن التربة بينما أوراق نبات خضراء تخرج من قرنيه، ومقابل الرسم نص قصير يعدد خواص "الجرماش نصف نبات ونصف حيوان، وصفحة ضخمة بها رسم لفرس نصفه السفلي كأنه جزء من طاووس، لا أعلم ما هذا، لا أفهم ما هذا، قائمتين أماميتين وفي الخلف عجلتين صغيرتين وهناك ملحوظة بأنه يمكن دائما استبدال العجلتين الخلفيتين بثلاث عجلات مجترة، للطرقات الوعرة وفي الحروب.

لم أسمع من قبل عن لويج الصيرفيني، الصيرفيني اسم عربي اما لويج فتركيبة أحرف غير معتادة في العربية، ربما يصح أن يكون لويح، أظن أني سمعت اسم لويحا من قبل، أما السيد لويج فهو اسم مستعار. أطرقع أصابعي فرحا فهي فرصة مناسبة للبحث، أتابع التصفح بينما أفتح الكمبيوتر. أجوجل كتاب الصيرفيني. ويب، هل تقصد كتاب الصيرفي؟ وأكتشف أن تقي الدين الصيرفيني كان مؤرخا عاش في القرن السادس الهجري. نتائج بعيدة تماماً عن الكتاب واقتراحات غبية، الصيرفي مختلفة تماماً عن الصيرفيني، أجوجل الصيرفيني. ويب، هل تقصد الصيرفي؟، ونتائج مشابهة للنتائج السابقة. أجوجل لويج الصيرفيني. ويب، هل تقصد لويج الصيرفي؟، ولا نتائج على الإطلاق!! حارة سد. أيأس وأعود لتصفح الكتاب، لا أجد اسماً لدار النشر، ولا اسماً للمطبعة، أبحث عن اسم الناشر على الصفحات الاولى وفي مقدمة الكتاب، لا شيء، أتذكر بأن بعض الكتاب العرب اكثر شهرة في الغرب، أسماؤهم بالانجليزية قد تكون معروفة أكثر من العربية. احاول البحث عن اسمه بالإنجليزية serafeny. ويب، هل تقصد serafini. وثلاث نتائج فقط تبدو بعيدة تماما عما أبحث، أضغط على الإسم المقترح. ويب، وفي النتيجة الثالثة أجد Luigi Serafini Wikipedia, the free encyclopedia، أضغط على الرابط وأقرأ صفحة السيد لويج، الذي دللوه وجعلوه لويجي، على ويكيبيديا أكتشف أنه:

"Luigi Serafini (born in Rome, 4 August 1949) is an Italian artist, architect and designer. He is best known for creating the Codex Seraphinianus, an illustrated encyclopedia of imaginary things in a constructed language. This work was published in 1981 by Franco Maria Ricci, out of Milan, and of interest and inspiration to others."

تستقر عيناي على السطرين، أحاول استيعاب ما أقرأ، هل أعود إلى النتائج السابقة؟، أضغط على الرابط الخاص بأشهر أعماله، على اليمين صورة لغلاف الكتاب، امرأة ورجل في حالة حب، يتحولان بالتدريج إلى تمساح.

أقرأ

"The Codex Seraphinianus is a book written and illustrated by the Italian artist, architect and industrial designer Luigi Serafini during thirty months, from 1976 to 1978. The book is approximately 360 pages long (depending on edition), and appears to be a visual encyclopedia of an unknown world, written in one of its languages, a thus-far undeciphered alphabetic writing."

أتسمر تماما هذه المرة، أضغط على الصورة لتصبح بالحجم الكامل أمامي، نفس الغلاف. أمسك الكتاب في يدي وأتحقق، نفس الغلاف، نفس المؤلف، نفس الكتاب. ما بين يدي ترجمة عربية ل Codex Seraphinianus، أضع الكتاب، أتأمل طويلا صورة الغلاف أمامي على الشاشة. كنت أظن أن الكتاب كُتب بالعربية، كتبه مؤلف عربي، بينما مؤلف الكتاب إيطالي، الكتاب مكتوب بلغة وهمية، اخترعها لويجي الصيرفيني الإيطالي الجنسية خلال سنتين. أعود إلى جوجل لأبحث عن اسم الكتاب بالإنجليزية هذه المرة، مئات النتائج تنفتح امامي، كلمات كثيرة بالانجليزية والإيطالية، وأنا أبحث عن كلام بالعربية، عن ترجمة الكتاب للعربية، يلفت نظري السطر الاول في الصفحة، وأضغط على كلمة صور، فتظهر نتائج جديدة لبحث جديد. صور، ومجموعة ضخمة من أوراق الكتاب أمامي الآن، أضغط على إحداها، لتنفتح صفحة جديدة، ثم أضغط على الصورة المصغرة مرة أخرى لأراها بالحجم الطبيعي.

ورقة أصلية تحوي ثلاث رسمات لثلاثة أنواع من الطيور، الطيور كلها غير معتادة، خليط من طائرين أو ثلاثة، أوطائر واحد معتاد ولكنه مشوه، طائرين ممسوخين، أو متحولين، كل هذا لم يكن غريبا، شاهدته منذ عدة دقائق في الكتاب الورقي. الغريب هو اللغة التي كتب بها النص في الجهة المقابلة من الرسم، تبدو وكأنها مجرد شخابيط،

أشكال متشابكة، وكأنها أبجدية لاتينية مشبكة، أحرف تتكون من منحنيات كثيره، وعليها الكثير من النقاط والنقاط الثنائية والثلاثية، وعلامات كعلامات التشكيل العربية، السكون والشدة، وهاء معقودة تتكرر بكثرة، أراها في اواخر الكلمات، كأنها تاء مربوطة، أراها في منتصف الكلمة وقد تضاعفت عقدها، عقدة داخل عقدة.

أعود مرة أخرى إلى نتائج البحث، أقرأ بسرعة السطور وأتأكد من أن اللغة مخترعة، ربما هي غير حقيقية، الأكيد أن لا أحد يفهمها إلا كاتبها، الأحرف والكلمات لا علاقة لها بأي من اللغات المعروفة، أقرأ بعض الأبحاث و المقالات، تصف الكتاب و كاتبه، بعض الآراء تقول أن المؤلف رسم الحروف رسما، وأنه لا يعني بها شيئاً، فقط منحنيات ونقاط لا تشكل حروفاً أو كلمات كما قد يظن القاريء، أو المشاهد في هذه الحالة. شيء واحد استطاع أحدهم تفسيره في النهاية، فنظام ترقيم الصفحات إحدى وعشريني، يتكون من واحد وعشرين رقماً، وليس من عشرة كما اعتدنا. بدا أن هذا أحد الكتب التي تحدث عنها بورخس، لغة مجهولة غامضة ورسومات من عالم آخر، ربما كوكب آخر، ونظام ترقيم مختلف، كل هذا لا غبار عليه، مثير ومقبول في حدود قصة لبورخس، أما وهو موجود أمامي الآن فهذا هو الجديد! يبقى اللغز الحقيقي في ترجمة هذا الكتاب إلى العربية.

ترجمة الكتاب فكرة عبثية تماماً، لغته الأصلية لا يفهمها إلا إنسان واحد، كيف سيتمكن شخص آخر من ترجمتها إلى لغة اخرى؟ إلا إذا ترجمها المؤلف نفسه، حينها يبدو الأمر منطقياً لوهلة. لكن، أليس من الطبيعي أن يترجم المؤلف الكتاب إلى الإنجليزية أو الفرنسية؟ او حتى الإيطالية لغته الأم؟ نحن العرب لا نهتم لمثل هذا الخيال الجامح، بعكس الغربيين الذين يثيرهم العالم الخيالي الذي بناه لويج الصيرفيني، العرب يقرأون الشعر وألف ليلة، أما موسوعة عن عالم خيالي فلا فائدة لنا فيها. أتساءل، ما فائدة كتابة كتاب كهذا بلغة مخترعة، إذا قام المؤلف نفسه بعد فترة بترجمته إلى لغات أخرى؟

أسمع أذان الفجر يأتي من جامع قريب، هل أصلي كي يفتح الله علي وأفسر ما يحدث هنا؟ حالما أفكر في الصلاة أتذكر البحث عن اسم المترجم، بالتأكيد هناك مترجم لهذا الكتاب، لن يترجم الكتاب نفسه تلقائيا! أفتح الصفحات الأولى من النسخة الورقية لأبحث عن اسمه، لا أجد شيئا، لا أجد ذكراً للمترجم. أبحث مرة أخرى عن دار النشر والمطبعة ولا أجد أي ذكر لهما، أين المغامرون الخمسة من هذا اللغز؟ لا أشعر بالنعاس حتى الآن، لكني سأبدأ في الانهيار قريباً، خلال ساعتين، بعد أن تطلع الشمس سينهار جسدي شيئاً فشيئاً طالباً الراحة والنوم، بينما ستصر عيناي وجلدي على أن الوقت نهار ولا يصح النوم فيه، فتبقى عيناي مفتوحتان تطلبان المزيد

من النور. سألجأ إلى القهوة لأخدع عقلي، فلا سبيل لخداع عينيي، ولابد لي من التزول إلى العمل، المكتبة التي أصبحت مقر عملي في الأيام الأخيرة، سأقوم الآن لتحضير قهوة تركية قوية، بل سأحضر قهوة أمريكية ممزوجة باللبن، أيهما أكثر تأثيراً؟ ولكن لم لا توجد قهوة عربية أو مصرية؟ في مصر لا نزرع البن، يزرعونه في اليمن، تذكرت أن هناك فعلا قهوة عربية، يشربونها في الخليج. قهوة فاتحة اللون مرة الطعم، يشربونها بلا سكر ويكسرون حدتها بالتمر الحلو. أحدهم أخبرني أن القهوة كانت رديف الحضارة والتقدم دائما، وأن الشعوب التي تشرب القهوة تكون دائماً على رأس سلم الحضارة، كنا كذلك منذ عدة قرون عندما كانت عادة شرب القهوة منتشرة بين العرب، ثم انتقلت العادة إلى الغرب وتخلينا نحن عنها فانتقلت الحضارة إليهم. الكافيين في القهوة يوقظ الذهن ويجعل التفكير منطقياً. أجبته أننا نشرب القهوة ليلاً نهاراً، بل أن بعض المصريين يشرب القهوة الامريكية الآن، قال لي أن البن الذي يتم تصديره لنا مغشوش، خال من الكافيين، والعملية برمتها جزء من المؤامرة الغربية الإمبريالية على العرب.

يتشتت ذهني تماما، هواء الصباح اللطيف الآتي من النافذة يضرب وجهي ويذكرني بالنوم الغائب. استسلمت للأرق وفتحت الكتاب لتقفز العفاريت منه فتقلقني، أخطأت الطريق للمرة المائة،

تسرعت وقفزت فوق صفحات الكتاب، فتحت الصفحات الداخلية وبدأت في القراءة ومحاولة فهم الصور، وهو ما لا معنى له مطلقا. يجب أن أبدأ القراءة من الصفحة الاولى، أقرأ مقدمة المؤلف والمترجم والناشر، كيف يفتح أحدهم صفحة في منتصف الكتاب ويبدأ القراءة؟ ما الذي سيفهمه القاريء إذا فتح كتابا في منتصفه وقرأ النص التالي   يتشتت ذهني تماما، هواء الصباح اللطيف الآتي من النافذة يضرب وجهي ويذكرني بالنوم الغائب. استسلمت للأرق وفتحت الكتاب لتقفز العفاريت منه فتقلقني، أخطأت الطريق هذه المرة، تسرعت وقفزت فوق صفحات الكتاب، فتحت الصفحات الداخلية وبدأت في القراءة ومحاولة فهم الصور، وهو ما لا معنى له مطلقا، يجب أن أبدأ بالقراءة من الصفحة الاولى، أقرأ مقدمة المؤلف والمترجم والناشر، كيف يفتح احدهم صفحة في منتصف الكتاب ويبدأ القراءة؟ ما الذي سيفهمه القاريء إذا فتح كتابا في منتصفه وقرأ النص التالي

أشرب قهوة الصباح غير المعتادة، فوراً يرتفع جفناي وأتذكر النوم، علي أن أنزل بعد ثلاث ساعات إلى العمل، أقصد إلى المكتبة، أقصد إلى التقرير. التقرير لن يكتب مطلقاً، لم أكتب كلمة حتى الآن، أجمع الأوراق وأقف أمام كتاب الصيرفيني مدة، هل أعيده للمكتبة أم أحتفظ به في بيتي؟ ثابتاً تماماً أحدق في الغلاف، رجل

وامرأه يتحولان إلى تمساح، كيف يتكاثر الناس في ذلك العالم؟ كلما التقى رجل وامرأة بقصد التكاثر يتحولان تدريجياً إلى تمساح. يتلوي التمساح قليلا ثم يترل من على السرير تاركا إياه خالياً. الصورة الأخيرة تظهر السرير خالياً، لا فائدة من الصورة الأخيرة، لا تظهر شيئاً، كأنها مشهد أخير صامت من فيلم سينيمائي، ما يسبق الإظلام التدريجي للشاشة. أنظر في الساعة لأدرك أن الوقت قد حان، مر وقت طويل وأنا محدق بالغلاف.

أجمع أشيائي وأنزل لتضربني الشمس بنورها وحرارتها. عينياي لا تتحملان الضوء المباغت، أغمضهما وأقف في مدخل العمارة قليلاً، منتظراً أن يضيق بؤبؤ العين، يجب أن يصل مقدار معين من الضوء إلى الشبكية، مقدار معين لا أكثر ولا أقل. أفتح عيني ببطء، لم تتعودا بعدُ على النور، لكني متأخر بما فيه الكفاية فأخرج إلى الرصيف لتصدمني ضوضاء الشارع. أصوات السيارات عالية جداً، بينما أصوات الناس خافتة، والأسفلت تحت قدمي طازج وغامق السواد، تم رصف الشارع منذ دقائق وقدمي تغوص في الأسفلت الطري الساخن، أرى الأسفلت في الأفق البعيد بنفسجياً، خداع نظر؟، سببه انكسار الضوء؟ تغوص قدمي مرة أخرى في الأسفلت أكثر من السابق، بينما الحرارة المنبعثة من الأرض تتسلل عبر فتحة البنطلون فتتعرق ساقي. ينادي علي أحدهم ليحذرني، لكن صوته

خافت جدا ونبرته لا تحمل إحساسا بالخطر.. "مزيج من السخونة والرطوبة واليبوسة"، حي بن يقظان يتشكل أمامي في الإسفلت، جنين صغير أحمر بطول الإصبع، سيكبر لاحقا ثم... هوب، لن يولد بل يقف فورا ليمشي على قدميه بيننا.

سيد

إذن فالنصّاب يحضر لمعرض جديد، لعنة الآلهة على التمويل الأجنبي. الرجل كان بريئاً طاهراً، ولا أعلم من دله على طريق المعارض واللوحات والتصوير، كان رساماً وفناناً واعداً، أخرج كعادة الفنانين طاقته المحبوسة على الورق والقماش، رسم عدة لوحات وكان وقتها سعيداً بزياراتي لبيته، غرفته التي حولها إلى مرسم. كنت أنا أيضاً سعيداً بفنه واجتهاده وخياله الخصب، ندر الخيال في أيامنا هذه التي تراجع مقابل عقلانية الناس المقيتة. وبينما كانت رسوم الكف تشغل لوحاته، وعبارات تهنئة القادمين من الحج تتشكل على أوراقه، كان يبتعد تدريجياً عن الواقع المرير للناس، غير مشغول بالحياة وتكاليفها، إذ هو موظف حكومي محترم، بمرتب صغير ثابت، ونفس تواقة لمزيد من الخيال والرسم، حتى أتى يوم أدرك فيه أن للمال اليد العليا، وأنه لا مفر من تحويل اتجاهه، وبدلاً

من الانغلاق على نفسه والتقوقع، وبدلاً من اعتزاله الدنيا وزهده في الناس، خطط ونفذ خدعته الكبرى، تلك التي جعلتني أحترمه كنصابا، وأحتقره كفنانا.

افتتح جاليري في منطقة سكنه، وضرب بذلك أكبر مثال للعبقرية، إذ يمارس النصب في حيه وبين رفاقه، يستخدمهم ويوحي إليهم بأهميتهم، ربما لأنهم ظنوا أن معرضه مثال للمعرض النموذجي. عندما ذهبت أول مرة مع مجموعة من رواد المكتبة إلى معرضه كنا نأمل أن نرى شيئاً جديداً مبهراً، تهنا في البداية وبذلنا الجهد حتى تمكنا من الوصول، ولما وصلنا وجدنا المعرض عبارة عن حجرة صغيرة لا تتعدى مساحتها العشرة أمتار، وعلى جدرانها تستقر عشر صور فوتوغرافية. أخيراً، هذا هو المعرض، استغرق مني تأمل الصور عشر دقائق، دقيقة لكل صورة، ولا يمكن بأي حال من الأحوال تأمل الصورة لأكثر من دقيقة واحدة، تركت المكان ولساني يبارك له، بينما قلبي غاضب من الفعلة التي فعلها النصاب بن النصاب. علمنا بعد ذلك أنه راسل مؤسسات ثقافية إسبانية وألمانية، وطلب منها أموالا لدعم "معرضه"، والمصيبة أن مؤسسة قبلت عرضه وتبنت المعرض، ليس لمجرد وضع اسم المؤسسة على منشورات المعرض، ولكن لأنهم ظنوا أن ما يدعيه حقيقي، وأن حجرته الضئيلة معرض فعلاً، وأنه منظم معارض حقيقي، وأنه يدعم منطقته الفقيرة، ويعلّم

صغار الحي الرسم والتلوين، ولا أظنه تهرب من فعل ذلك، فقد سمعت أنه نظم معرضاً لرسومات أبناء شارعه الصغار، الذين دربهم على استخدام الفرشاة والألوان؛ ليخرجوا إلى البشرية أعمالاً تنافس أعمال جويا.

ولأنه متملق عفن، فقد سمى المعرض "جاليري جويا"، طمعاً في استدرار عطف الإسبان، وطلباً لأموالهم، فلما رفضت المؤسسات الإسبانية تمويله أسقط في يده، وكاد أن يغير اسم المعرض ليحمل اسم فنان من الألمان أو الفرنسيين أو غيرهم، ممن تتوافق جنسياتهم والدولة التي يطمع في أموالها، ولما وافق الألمان على دعمه وتمويله، هدأ وركب الموجة، وأخبرهم بأنه احترم فعلهم ذلك، على الرغم من أن اسم المعرض المنسوب إلى الإسباني الكئيب. يظن المغفل أنهم لن يقدمون الدعم له طالما أن مسمى باسم الإسباني. علمت بعد ذلك أنه بدأ مشروع طموح لطلاء جدران المنازل في حيه، يقوم الأولاد الصغار خلال الإجازة الصيفية برسم ما يودون على الجدران الخارجية للمنازل والمحلات، وهكذا تم استبدال الألوان الحيادية على واجهات العمارات في حيه إلى تلك الرسوم البسيطة واللطيفة التي رسمت بيد فنان محترف، ثم أَعَادَتْها ولوَّنَتْها أيد صغيرة لأطفال وشباب الحي، والمشروع كان في مجمله ممتعاً، كلما مررت على مكان النصاب استمتعت بمراقبة الصِّبْية، وهم يلونون واجهات

المنازل، واستمتعت أكثر بمشاهدة الواجهات التي تم الانتهاء منها، كأني أقف في صالة معرض سرمدية، أو كأنني أقف في مدينة إيطالية يمتهن جميع سكانها الرسم، لكن أحمد عبد الرحيم كان يعتمد أيضاً في هذا المشروع على التمويل الألماني، فلا مفر إذن من النصب.

شاهدت كومة من الدعوات الجديدة صباح اليوم في المكتبة، فأخذت واحدة لأقرأ ما كتب المأفون في تلك المطوية حسنة الطباعة، ولم تفارقني الابتسامة من فرط مقدرته على النصب والخداع، هذه المقدرة الواضحة في لغته وجمله المثيرة.

معرض لآثار مندثرة مجهولة، وخطوط وكتابات بأحرف مازالت غير محللة أو معلومة، وردت كلها على برديات أو أحجار وُجدت في مصر، في الدلتا وفي سيناء وفي وادي النيل، تسع لغات مجهولة. لا أستطيع وصف فرحتي لاهتمام شخص ما بموضوع كهذا، فقد تطور عبد الرحيم كثيراً منذ معرض الصور الفوتوغرافية الأول الذي حضرته سابقاً، أخبرني سابقاً أنه وسع المعرض و زاد من عدد قاعات العرض، وهو يطلب مني المجيء، المعرض الجديد سيعجبني حتما، لم يتحدث عن المعرض أو عن لغاته التسع المجهولة، بل تركني متشوقا لمعرفة المزيد. اليوم ومع قراءة مطويته الجديدة، أخذت أتراجع عن فكرتي المعتادة، ربما لم يتعمد الرجل النصب على أي حال.

أصبحت أيامي الأخيرة رتيبة بشكل لا يطاق، لا جديد على الإطلاق، كل شيء مكرر، اكتسبت الأشياء قبحاً من فرط تكرارها. الاختلاف الوحيد: شاهر، غامض تماماً ولكنه مع ذلك ودود، قررت اليوم أن أسأله عن ماهية تقريره، منذ أن عرفت بقدومه من علي وأنا متوقع أن الأمر جلل، سكوت وتكتم شاهر أكدا توقعي هذا، واليوم أتى علي ليصدمني هو الآخر. قال لي أنه علم من خلال شبكة معارفه، أن المترو في طريقه إلى المكتبة، ولا ريب أنه سيصطدم بها إذا استمرت قائمة، فلذلك لابد من إزالتها. تركته وجلست بعيدا، فلم يتبخر الكحول من رأسه بعد، يا أخي ارحمنا، من في سنك تفتت أكبادهم منذ عشر سنوات، وأنت تقاوم وتناضل وكأن كبدك كبد بروميثيوس، كأنه كبد حجري يقاوم كل أشكال الفناء. وعلى الرغم من هلهل أفكاره، إلا أني فهمت ما يقصد، ستتم إزالة المكتبة بسبب المترو، أعمال الحفر مستمرة منذ مدة طويلة، سمعت عن شكوى بعض الملاك بسبب قلة التعويض الممنوح لهم من قبل الدولة، هل سنتلقى تعويضاً؟

صدمت حينما أدركت الأمر، صدمت أيضا من رد فعل علي، سعيد مبتسم ينقل الخبر وكأنه فخور بأنه أول من يعلم، أو أنه فقد عقله ولم تعد ردود أفعاله منطقية. ربما يأس من فكرة تملكه للمكتبة، فرأى أن تدميرها أفضل، أو ربما هيأ له تفكيره المريض أن جزءاً من

محتويات المكتبة سيكون من نصيبه، أنا متلهف الآن لسؤال شاهر عن الأمر، لم تأخر؟

يأكلني القلق، أين سأذهب إذا أزيلت المكتبة؟ لن يتم نقل الكتب إلى مكتبة أخرى، فالأوقاف حُلّت منذ عقود، وما تَبقى منها قليل لدرجة إهماله، وبالتأكيد لن يلتفت أحد لما في المكان، وربما باعوه لتجار الكتب. وماذا عن الكتب المترجمة التي ليس لها مثيل؟ أتذهب هباءاً هي الأخرى؟ سأعيش لأرى الترجمات الكاملة مبعثرة بين تجار الأزبكية، يرصوها في ضوء الشمس ليأكل منها قطعة كل يوم، يفرشوها على تراب الطريق ليدخل بين الأوراق ويصيبني بالحكة حينما أمسك الكتاب، لكني تعلمت ألا أحزن، ربما يكون هذا في صالح الناس وأنا لا أعلم، ألن يكون هذا في صالح الترجمات؟ لا أعلم بعد.

يعلم أبو المعاطي بالأمر، وأشعر به حزيناً مكتئباً، وقد انكسرت نظرة التعالي في عينه. فلاح أصيل يحزن عند تركه للمكان حتى لو لم يكن يملكه. حتى أبا المعاطي توقع الأسوأ، وتوقع أن تزال المكتبة بالفعل مع أن قراراً كهذا لن يصدر اعتباطاً، أنا أيضا توقعت الأسوأ وفكرت في مصير الكتب، وأصبحنا نخلق سيناريوهات سوداوية، متوقيع الأكثر سوءاً، أن تنتهي الدنيا وتقوم القيامة قريباً.

شاهر

مكان الكتاب خال، أمد يدي داخل الحقيبة لآخذ كتاب الصيرفيني وأضعه مكانه، أقرر أن أؤجل الأمر قليلاً، لكن لا أتذكر أي شيء عن رحلتي هذا الصباح، كل ما أذكره وقوفي هنا أمام الرف ومكان الكتاب الخالي، أمر على الرف باحثاً عن... لا أعلم عما أبحث. ألاحظ قاموساً لمؤلف غير عربي، أخرج القاموس لأجد أنه مترجم إلى العربية، يبدو أن اسم الكاتب أجنبياً. قاموس مترجم؟؟؟ ألغاز لا تنتهي في هذا المكان، أفتح الصفحة الأولى لأجد أن "القاموس عبارة عن رواية، كتبها المؤلف في صورة قاموس، ومرة أخرى، لا وجود لمترجم أو دار نشر أو مطبعة، وككتاب الصيرفيني لم أجد إلا اسم الكتاب واسم المؤلف فقط، أضع الكتاب في حقيبتي بتلقائية.

أتفقد باقي الرف لأجد ترجمات كثيرة بلا اسم للمترجم على غلافها أو على صفحاتها الأولى، عشرات وربما مئات في المكتبة، وكلها بلا مترجم، أدلف إلى الصالة ومنها إلى غرفة أخرى لأجد مئات الكتب المترجمة أيضا، أحمل معي ثلاثة منها، وأذهب لأجلس على أرضية الصالة، فأفتح القاموس - الرواية محاولا فهم ما تحتويه، أسند ظهري للجدار، وأقرأ من المنتصف.... لا لن أكرر الخطأ مرة أخرى، بل سأبدأ من البداية، ولكني لا أملك الوقت الكافي، لست

صبورا لأقرأ الكتاب من أول صفحة لآخر صفحة، متى يخترعون آلة تنقل ما في الكتاب لحظياً إلى دماغي؟ بلا حاجة للقراءة وتضييع الوقت؟ قد أقرأ المكتبة كلها في أسبوع واحد، بل في يوم واحد، سأتخلص تماماً من الرغبة الملحة في قراءة كل ما تقع عيناي عليه، عادة ما أترك كل ما حولي وأندمج في قراءة جريدة أو إعلان على الحائط الذي أمر من أمامه، أنسى غايتي الأساسية وأندمج في قراءة الإعلان أو الجريدة، تماماً كما نسيت أني أتيت المكتبة لمهمة محددة، وتحولت إلى استكشاف لا نهاية له، وسرقة كتب بلا مترجم ولا ناشر. ألمح من خلال باب الغرفة كتاباً ضخماً، أقوم من مكاني وأقترب منه مثبتاً بصري على الكعب لأقرأ الاسم في منتصف الطريق، وأمد يدي لأمسك النسخة الأصلية من كتاب الصيرفيني، المكتوبة باللغة الصيرفينية، يشبه كثيراً النسخة المترجمة، فيما عدا الكتابة الداخلية المجهولة. تشبه تماماً ما رأيته من نسخ على انترنت، ألاحظ بوضوح حرفي العين والهاء، وألاحظ أيضا العين المقلوبة والهاء مزدوجة العقدة بين الكلمات، وأيضا النقاط المتعددة فوق الأحرف، نقطة مفردة ونقطتين، وثلاث نقاط مرسومة كما نرسمها في خط الرقعة، زاوية عليا لمثلث.

أضع الكتب الستة في حقيبتي، هل يجب علي أن آخذ واحداً آخراً حتى يصبح المجموع سبعة؟ فتصير السرقة ذات مدلول كوني

ميتافيزيقي؟ كيف أنزل حاملاً الحقيبة وهي ممتلئة هكذا أمام الجميع؟ هل أترك المكان إلى البيت أم أبقى قليلاً في المنور؟ أه... المنور المنير، إذا وصلت للمنور و لم يلاحظ أحد حقيبتي فهذا يعني أني سأفلت من المراقبين. على السلم أتذكر د سيد، لم أره اليوم في المكتبة. في الأسفل أقابل الأمين و أسأله عن د سيد. يجيبني بأنه لم يأت بعد، وربما لن يأتي اليوم فهو لا يتأخر كل هذا الوقت، أهاتف سيد متردداً، لا أعلم بم سأخبره، هل سأسأله عن صحته وسبب غيابه؟ ينقذني رده من ترددي، بعد السلام يخبرني أنه لن يحضر اليوم، وأن في إمكاني زيارته إذا أردت، ألتفت إلى الأمين وأشير برأسي شاكراً له، أتحرك إلى الخارج ومازال التليفون ملاصقا لأذني، أشعر بالحقيبة ثقيلة بما فيها من مسروقات، أعبر البوابة وأنا أحدث سيد بصوت عالٍ، مناورة أخيرة مني للخروج من المكتبة بدون لفت الأنظار إلى حقيبتي.

سيحل سيد اللغز ـــ بالتأكيد ـــ، سأحكي له الحكاية بالتفصيل، وسأصل معه إلى السؤال النهائي: من مترجم كل تلك الكتب؟ من مترجم كتاب الصيرفيني؟ سيبتسم بدماثة ويخبرني بكل شيء، فأنا واثق أنه متورط في فعل ما له علاقة بكل هذا، ربما هو من ترجم كل هذه الكتب؟ في الأمر استحالة واضحة، ربما هو عضو في لجنة لترجمة الكتب؟ لجنة خفية؟ لجنة سرية؟ يقبع أعضاؤها في السرداب الخفي أسفل المكتبة، أم أنها طوابق متعددة تحت المكتبة.

سبعة طوابق تحت الأرض، تشغل الطوابق مساحة أكبر من مساحة المبنى والحديقة؛ لتتسع إلى حدود الشوارع المحيطة بالمكان، المترجمون عاشوا حياتهم كلها لغرض واحد فقط، ترجمة كل ما يوضع في المكتبة، أي كتاب يدخل إلى المكتبة يجب ترجمته، سواء تبرع به أحدهم أو أهداه للمكتبة أو أوقفه المؤسس، مهمة مقدسة لا أعلم من بدأها، ولا أعلم من هو أول مترجم يختبئ في السرداب، أو في الطوابق المتعددة. تحت هذه الطوابق سبعة طوابق أخرى، لمحررين ورسامين ومصممي أغلفة وصفحات داخلية، ومراجعين للترجمة واللغة والنحو، ومجموعات مراجعة أخيرة لاكتشاف أدق الأخطاء، كل هذا ليصبح الكتاب في أكمل صورة ممكنة، ثم سبع مطابع ضخمة لإخراج الكتاب مطبوعاً، ومعمل للتجليد اليدوي، ومكابس وأثقال حديدية ورخامية، وجلود طبيعية ومصنعة، الجلود الطبيعية لتجليد الكتبة الضخمة، لكي لا تتمزق مطلقاً، والأخرى المصنعة لتجليد الكتب ذات القطع الصغير والأوراق القليلة، وأفرخ من أوراق ملونة عشوائيا وأخرى مزركشة بزخارف نباتية ذهبية وفضية، وثالثة ذوات ألوان أحادية، أحمر وأزرق وأسود، وورق ثقيل، الغرض منه تبطين الغلاف القاسي للكتاب.

وتوجد جماعة صغيرة مكونة من سبعة أفراد، مهمتهم التسلل تحت ضوء الشموع – استُبدلت الشموع بمصابيح تعمل بالبطاريات

في الثمانينيات – ليلاً إلى الأدوار العليا من المكتبة، واضعين الكتب المترجمة على الأرفف، مبعدين الترجمات عن الكتب الأصلية قدر المستطاع، كاتبين على الأغلفة اسمي السابق واللاحق، حفاظاً على موقع الكتاب، بعد ذلك يعودون إلى الطوابق السفلية في صمت. أو أن رهبان الدير المجاور يتسللون ليلاً إلى المكتبة عبر سرداب خفي تحت الأرض، أو ربما يتعلقون في سلك معدني يصل بين قمة البنائين؛ ليأخذون كل كتاب تم وضعه حديثاً في المكتبة، ثم يعودون به إلى الدير ليدرسونه ويترجمونه، سلسلة طويلة من الرهبان، معتكفين للترجمة فقط ولا لشيء آخر، مرسلين نسخاً من الترجمات إلى أديرة مصر كلها، لتوضع في مكتباتها، مجمعين ذخيرة علمية ضخمة، الأمر يتضخم و يفلت من يدي، يتحول تدريجياً لمؤامرة مسيحية.

بدلاً من ذلك، يقوم حنّا الناسخ –مؤامرة مسيحية أخرى؟– بنسخ وتصوير كل كتاب داخل المكتبة، ثم يعود إلى منزله ليرفع الكتب المصورة على حاسبه الشخصي، ومن ثم رافعاً إياها إلى موقع خفي على انترنت، موقع ضخم يتمكن من ترجمة أي نص بأي لغة إلي أي لغة أخرى، بسرعة وكفاءة، موقع مصمم بذكاء صناعي، صمّمه مبرمج شديد الغباء، وربما مصاب بإعاقة عقلية ما. يعود حنّا فيطبع الترجمات العربية والفرنسية والإنجليزية ليقرأها هو، بل ويودِعُ بعضَها في المكتبة مرة أخرى وهو يضحك بخبث، مفكراً في حيرة من

سيكتشف تلك الترجمات، متصوراً أن أحداً لن يعرف أبداً بأمر موقعه الخفي الذي يترجم أي شيء..

الحقيقة هي أن مؤسس المكتبة كان أرمينياً، وصل إلى مصر هارباً خوفاً من مذابح الأرمن، كان ذلك في حدود عام ١٩١٥، كان كل هدفه هو فضح الأتراك، قرر أن يجمع الوثائق التي تصف المذبحة، دور الأطباء الأتراك في المذبحة، ور رجال الجيش، جمع الملصقات و البيانات و الاخبار من الصحف. قرر أن يظهر تركيا في صورة الدولة العنصرية. لكنه استبدل بذلك هدفاً أكثر سمواً، ترجمة كل ما يقع تحت يده إلى الأرمينية، وهكذا، أسس مكتبة كوكب عنبر، وأخذ يترجم كل ما في المكتبة إلى الأرمينية، ليثقف الجالية الأرمينية في مصر، ويعرفها بأحوال وعادات المصريين....ثم ماذا؟ وماذا بعد ذلك؟ و ما علاقة ما أهذي به بما يحدث حولي؟حارة سد.

الواقع أن المكتبة أنشئت على أنقاض مقبرة تحوي رفات جنود وضباط من الحرب العالمية الثانية، إنجليز وأستراليين ونيوزيلانديين. و ربما كان هناك هنود و ملاويون، ولأن أرواحهم لا ترقد مستقرة تحت المبنى الهائل، بل تهيم كل يوم في أرجاء المكتبة، قامت تلك الأرواح بالترفيه عن نفسها، فترجمت كل ما في المكتبة، وهكذا ترجمت الكتب الإنجليزية إلى الفرنسية والعربية والسنسكريتية. أقدم لكم: ستيفن كينج.

في يوم من الأيام، أتت كائنات فضائية ذكية عاقلة، "من مجرة بعيدة بعيدة"، رائع !، هل هناك كائنات فضائية ذكية غير عاقلة؟ ولكي يتعرف الفضائيون على ثقافة كوكب الأرض، اتجهوا إلى المكتبة التي تحمل اسم الكوكب...... لكن هذا أيضا لا يفسر كيف تُرجم كتاب الصيرفيني... لم يأخذ الموضوع طابعا تراجيديا هكذا؟ لماذا أشغل بالي بتفسير منطقي/ خيالي لحدث عبثي / واقعي؟ التاكسي يتوقف على ناصية شارع د سيد، فأخرج من توقعاتي إلى العالم حولي، لا أذكر متى ركبت التاكسي، لا أذكر كيف وصفت له المكان. حاولت فتح الباب، لكنه لا يفتح إلا من الخارج فقط، أخرج و أمد يدي بالمال دون أن أنظر في عيني السائق،يأخذ هو المال بلا كلمات أيضاً.

على بوابة العمارة بدت لي فكرة الفضائيين منطقية للغاية.

سيد

منذ الصباح وأنا أقف في الشرفة متأملاً الشارع، لا رغبة حقيقية لي في الخروج اليوم، لا هدف من الخروج أيضاً. تراودني أحلام كابوسية عن قرب نهايتي، ثلاثة أيام وأنا أفيق مفزوعا من الكوابيس. أنا الذي قاومت كوابيسي القديمة بالعزلة والاستهتار،

تعود مرة أخرى لتفيقني متعرقاً وقلبي ينبض بسرعة. لا ريب أن للمكتبة علاقة بالكوابيس، فكرة تصفيتها وإزالتها تذكرني بسنوات عمري وقرب نهايتي. أرى مورتا تقطع الخيط وتتحول الأشياء إلى سراب بألوان باهتة وبلا خطوط محددة، ثم أصحو فزعاً لأتأكد من وجود العملتين بالقرب مني.

على ناصية الشارع فَرْشة صحف وكتب ضخمة، موجودة هنا منذ أربعين عاماً، وربما ورثها الرجل الجالس بجانبها من أبيه، تتسع مساحة الفَرْشة وتضيق كل عدة أعوام. اليوم هي أكثر اتساعاً، تعرض الكثير من الصحف والمجلات والكتب، كنت أشتري منها أحياناً كتاباً أو مجلة، لا طاقة على قراءة الصحف الآن، فقد أضربت عن قراءة الصحف منذ مدة، هناك مقولة شهيرة بأن الأهرام سوف يصدر حتماً، حتى لو انهار المبنى الضخم ومات جميع الصحفيين وتعطلت المطابع. حتى لو انتهى العالم سنرى الأهرام على تلك الفَرشة على الناصية يحكي أنباء عن تحركات السيد الرئيس، وعن طول سفره، وعن لقائه بفلان وعلان من القادة والرؤساء.

إني أعرف العلاقة الحتمية بين الملك / الرئيس / السلطان / الخليفة، وبين الله. فكما أن الله واحد فالرئيس واحد، وكما أن الله قادر على كل شيء، كذلك الملك قادر على كل شيء، وكما أن الله رأس المخلوقات، فالسلطان رأس الدولة والقوات المسلحة ومجلس

الوزراء، وكما أن الله يحدد مصائرنا وأرزاقنا، كذلك الخليفة يعلن قيام الحرب، ويفرض مكوساً أو ضرائب، ويقتل هذا أو يعفو عن ذاك.

والعلاقة تلك ليست متحققة علي مستوى بلادنا فقط، بل هي موجودة في الغرب أيضا، فكما أن زيوس تصارع مع العديد من الآلهة قبل أن يتربع فوق عرش الأولمب، فالرؤساء يتنافسون على مقعد الرئيس من خلال الانتخابات، وكما أن زيوس مهياص فاسد وزير نساء، كذلك كان الكثير من قادة أوروبا، وكما أن ربات المقادير لهن اليد العليا فوق زيوس، كذلك قضاة المحاكم العليا أحكامهم واجبة التنفيذ من قبل الرئيس، وكما بدت هيرا أقوى وأكثر حزما وأشد خبثا من زيوس، فإن هيلاري أقوى بالتأكيد من بيل.

لست مهتما بمصير المكتبة، لن أقلق على مجموعة من الأحجار والأخشاب، فهي مرصوصة فوق بعضها في شكل جميل أو قبيح، قتلتُ الحنين منذ سنوات و لم أزر القبر. ما يعنيني هو المحتويات، آلاف الكتب، تم بذل مجهود ضخم حتى تكتب، و مجهود آخر خيالي حتى تترجم بهذه الدقة، ولو حسبتُ الزمن الذي مضى في كتابتها وترجمتها لزاد عن عمر العالم، كل هذا مصيره إلى المخازن وأمعاء الفئران.

امتلأت المكتبة حتى لم يبق هناك مكان خال على رف، كان لابد من توسيع المكان، وهو غير قابل لذلك، أو تنقل الكتب إلى مكتبة أخرى. هل هذا هو المعتاد؟ لم أسمع من قبل عن مكتبة امتلأت عن آخرها، يعيش المكان عشرات الأعوام، تزيد محتوياته فيبدأون في توسيعه وزيادة عدد غرفه، تدريجياً يضيق المكان مرة أخرى حتى يأتي الفاتحون المسلمون فيحرقون المكان بما فيه.

منظر شاعري جداً، نار موقده ترتفع وتضيء ليل المدينة. أو يأتي المغول ليلقوا بمحتويات المكتبة في نهر دجلة، وهو منظر أكثر شاعرية، يتحول لون ماء النهر إلى السواد، بعد أن اختلط حبر الكتب بماء النهر، ويزيد بعضهم من شاعرية المشهد فيدعي أن المغول أشعلوا الكتب، لترتفع النار فوق النهر، عظيم جداً! التاريخ يكتبه المنتصر، ولو كتبه المهزوم لحول هزيمته لوَلْولة وبكى على ما فات واندثر، شاغلاً الناس عن سبب الهزيمة وتقاعسه وخيب مسعاه. شكراً لمؤرخينا على هذه المشاهد الخيالية الجديرة بفيلم عالمي مدهش. هذا التاريخ الكامل دليل على أن كل المكتبات في النهاية مصيرها النار أو الغرق، ما زلت أحاول تذكر اسم مكتبة عاشت إلى الأبد، لا يوجد. كوكب عنبر لن تكون استثناءاً للقاعدة. نهاية المكتبة تحين عندما تمتليء، وكوكب عنبر امتلأت، أشعلوا النيران!

إذن ستغلق الدائرة وتنتهي المكتبة، ولن يبقى إلا ذكرياتي عنها. وما هذا الهراء عن الدائرة التي تدور لتنغلق؟ من صاحب الفكرة الخائبة؟ كل الأشكال الهندسية تغلق في النهاية، فإطار النافذة التي أمامي مستطيل مغلق، وجدران الغرفة كذلك، أما الشارع فهو خط يبدأ في مكان ما لينتهي عند التقاطع. وحتى الشكل الإهليجي ينحني لينتهي مغلقاً، ودورانه أكثر تعقيداً من الدائرة، ولكنه لم يُثر خيال صاحب تلك الفكرة العقيمة، وأنا ظللت أجتر تلك الفكرة حتى أصبحت ملخصا لحياتي. أحد المدعين يتمسح بفكرة صوفية وظل يكررها ــ وأنا كالببغاء كررتها خلفه بدون تدبر ــ: ما أسهل أن أرسم خطا متعرجا بلا ضوابط لأعود فأغلقه مرة أخرى، ما المثير في هذا؟

شاهر

مدهش! رأس ميدوسا معلق على باب الشقة، فمها مفتوح وحاجباها غاضبان، وعيناها تنظران إلى أقصى اليمين، بينما أفاعي رأسها تتلوى في غضب، هذه خير وسيلة للترحيب بالزوار. د سيد يفاجئني في كل مرة، سمعته قبل ذلك يقسم بزيوس ومينيرفا، فالرجل مؤمن بهم وبقدراتهم، وإن كانت تلك الآلهة قد انقرضت وانقرض

من كانوا يؤمنون بهم- أم ما زال هناك مؤمنون؟- حتى الآن لا أعلم إن كان سيد الأهل مسلماً أم مسيحياً، سأجعله مسيحياً، فالمسيحي المؤمن بزيوس أكثر قبولاً من المسلم المؤمن به.

ألاحظ أن الباب غير موصد، أفتحه وأدخل لأجد مكتبة أمامي، وأخرى عن يميني، وثالثة ورابعة، الحوائط مجلدة بالأرفف والكتب، سيد هناك في الصالة محدقاً في الشارع عبر الشباك، كيف يترك الباب مفتوحا هكذا؟ الشقة قديمة للغاية، ربما شُيد المبنى مع بداية تأسيس الحي، أثاث ضخم منتشر في الشقة، محتفظ برونقه وبلا أجزاء مهترئة أو مكسورة، تلال من الكتب على أرفف المكتبات والخزائن ذوات الأبواب الزجاجية، على الأرض رصات عالية من الكتب، وكذا على الكراسي والطاولات، وأظن أن في حمامه كتب أيضاً! استأذنته في الذهاب للحمام، فأشار بيمينه إلى ممر قصير، في الحمام أجد مكتبة صغيرة واطئة، كتب لأنيس منصور وأخرى لأدهم صبري ونور الدين محمود، للرجل ذوق لا يضاهى! أغسل وجهي لأنتعش، يذكرني الماء البارد بالنوم، يجب أن أنام، كلما حاولت إيقاظ نفسي بالقهوة أو بغسل الوجه أتذكر النوم المشتهى. على كرسي عتيق في الصالة أجلس مرتخياً تماماً، ونسيمٌ لطيفٌ يتسلل من الشباك ليجفف الماء على وجهي ويدفع بي إلى النوم.

صامتاً أخرج كتابيّ الصيرفيني، أضعهما متجاورين على الطاولة أمامي، الأصل عنوانه مكتوب بحروف لاتينية، والآخر بحروف عربية. سألت سيد عن تفسير. يحدق هو في الكتابين قليلاً، لم يمد يده ليتصفح أحدهما أو يسألني عنهما، هكذا، تبين لي أنه تعرف على الكتابين من قبل، شاهدهما وقرأهما في المكتبة. أخيراً وجدت من سيبدل حيرتي إلى يقين, يتحرك من مكانه سائلاً إياي هل تذوقت نبيذاً بارداً قبل ذلك؟ فتح ثلاجته وأخرج زجاجة نبيذ أحمر، وقال لي أن النبيذ الأحمر يتم تقديمه عادة بلا تسخين أو تبريد، في نفس درجة حرارة الغرفة، ولكن هذا الجو الحار يستوجب تبريده قليلاً. يقول أن الناس اعتادوا حفظ النبيذ في أقبية بيوتهم، في البدروم، الذي عادة ما يكون رطباً و أكثر برودة من باقي البيت. لذلك يكون النبيذ أبرد قليلا من درجة حرارة الغرفة. يفعلون ذلك في أوروبا، اما هنا فلا قبو و لا بروده، الجو حار كما أرى، و د سيد يحب النبيذ الأحمر بارداً أكثر وأكثر. أكثر بروده من درجة حرارة القبو. الثلاجة تبرده تبريداً زائداً عن الحد المطلوب؛ لذا سيترك الزجاجة ريثما تفقد قليلاً من برودها، لكن بدون ان تقترب من درجة حرارة الغرفة، هناك لحظة معينة يبدأ فيها بشرب النبيذ، عندما تكون درجة حرارته مثالية. فتح الزجاجة وتركها كذلك، زاعماً أن النبيذ ينبغي أن يتنفس قليلاً، يندمج مع هواء الغرفة، حبسة النبيذ تلك تخفي مذاقه الأصلي، بينما فتحُ الزجاجة خلط روائح المكان بالنبيذ ليصبح مألوفا في فم

شاربه، عاد إلى شباكه واستند عليه، ثم أشار إلى الكتابين وسألني: ما المشكلة هنا؟

سيد يناورني، يتهرب من الإجابة؟ أم أنه يريد أن أخرج كل ما في جعبتي؟ أحدثه عن اكتشافي، عن استحالة ترجمة كتاب مكتوب بلغة مجهولة مخترعة، وعن عدم وجود اسم لناشر أو لمترجم، وعن كثرة الكتب الخالية من أسماء لمترجمين في المكتبة. أسأله من ترجم كل هذا؟ تبدو الحاجة إلى النوم مفيدة، الآن فقط تلمع الأفكار في رأسي. الرجل متخصص بالتعمية، متخصص في فك الشفرات. د سيد فك شفرة الكتاب وترجمه للعربية إذن. كيف لم أنتبه لمثل هذا الحل من قبل؟ غاب عني تخصص الرجل وشهادته وعلمه، وبدأ هو من حيث انتهيت أنا

"كتاب الصيرفيني لا يترجم، هو مكتوب بلغة مجهولة وأحرف مجهولة، يصف عالما مجهولا، ومن ثم، فلا رابط أو صلة بينه وبين عالمنا أو حضارتنا، ولا يوجد أيضا نص موازٍ له بلغة معروفة، يستحيل في هذه الحالة حل النص، والبحث فيه مخالف للمنطق ومضيعة للوقت.

النص معمى، وقد يكون مكتوبا بلغة أخرى ذات أقلام غير معتادة كما يروج المؤلف، وقد يكون تعمية لنص آخر مكتوب

بالإنجليزية أو الإيطالية، وقد يكون نصاً مخترعاً، مجرد حروف متصلة ببعضها لا تعني شيئاً على الإطلاق. فلا أتوقع أن يرسم أحدهم كل هذه الرسوم، ثم يخترع لغة متخيلة ليصف بها الرسوم المتخيلة، كفاه الرسم. وما بعد ذلك استعراض لمهارته في الخط والاختراع البصري. أضاع الكثيرون سنوات باحثين عن معنى لكتاب الصيرفيني، وكل ما توصلوا إلى فهمه هو النظام الرقمي المستخدم في ترقيم الصفحات، لا شيء أكثر من ذلك، ولكن هذا ليس حلاً للمسألة، أنا بوصفي متخصصاً أرفض العمل على نص كهذا، كما أخبرتك يستحيل حل هذا النص، لا يمكن استخراج المعمى.

يذهب ناحية الزجاجة ويصب كأسين، ويقرع كأسه في كأسي وينظر مباشرة إلى عيني، يتذوق السائل، ويديره في فمه، ثم يجرعه دفعة واحدة. أرشف أنا من الكأس، عطر النبيذ يثيرني ويحرك دمائي، برودته تجعلني أتجرع الكأس كاملاً، يصب هو كأسين آخرين، لكن هذه المرة أتلذذ بالطعم البارد على مهل. يتابع هو:

"و لا أفهم لم تفترض وجود مترجم للكتب، فغياب المترجم ليس أمراً معجزاً، هل يجب أن يكون الأمر منطقياً؟ المنطق لا يحكم علاقاتنا اليوم، العرب بنوا صروحاً من الخيال، و لم يسألهم أحد عن مكان تواجد الرخ، أو عن نوع الصوف المستخدم في نسج بساط

الريح، أو عن مكان دكان الأخلاق، هذه أشياء مرت على الناس دون أن تثير تساؤلاتهم، فلمَ يثيرك الأمر إلى هذا الحد؟

يمسك قلماً سميكاً، يزيح الكتب عن الجدار المقابل، ويبدأ في رسم دوائر وخطوط على الحائط مباشرة، وكأنه يرسم على سبورة بيضاء، يترك كل شيء ليصب لي كأسا آخر.

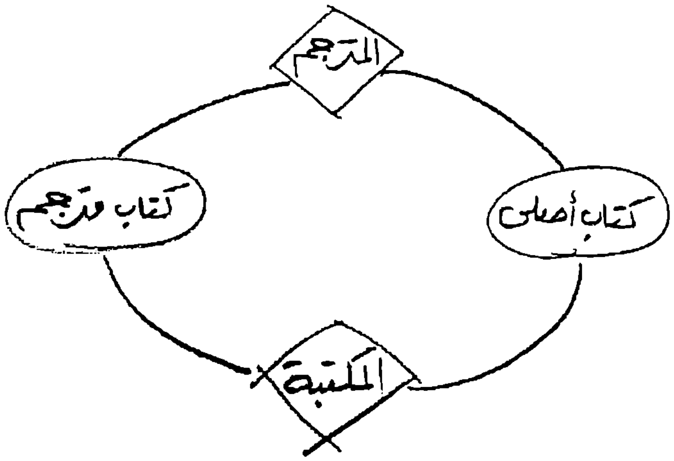

"كما ترى، هناك كتاب أصلي، وبالتأكيد؟ هناك المُترجم، الذي ترجم الكتاب إلى لغة أخرى، وهناك أيضا المكتبة، التي وجدتَ فيها الكتابين. فالمكتبة والمترجم هما حلقتا الوصل بين الكتاب الأصلي والآخر المُترجَم. ولولا المكتبة لم تكن لتكتشف وجود الكتابين معاً، ولولا المترجم أيضا لن يكون هناك وجود للكتابين معاً، هذه هي

الحالة العامة، أما في حالة كتاب الصيرفيني – الكتاب الذي لا يترجم – فالمُترجم غائب

أخذ يرسم دوائر وخطوطا أخرى مشابهة للسابقة مع فرق طفيف.

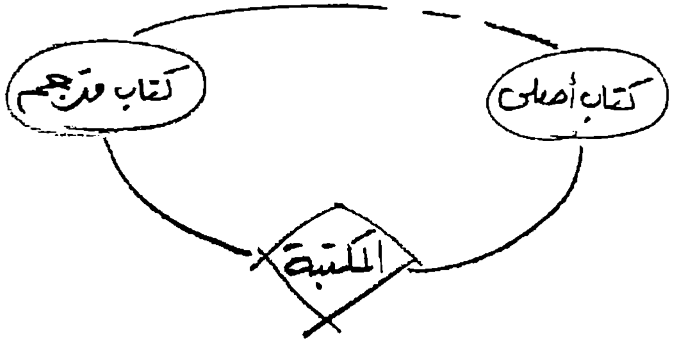

"هنا تبقى المكتبة فقط حلقة الوصل، أنت وجدت الكتابين معاً فيها، ومهما بحثت لن تجد اسماً للمُترجم، لن تجد المترجم قط؛ لأنه لم يكن هناك مُترجم في الأصل

لا أدري كم من الزمن مر عليّ وأنا جالس هنا؟ أشاهد على الطاولة أطباق مزة، جبن وطماطم وجرجير وخيار، طرشي؟ الدكتور سيد الأهل يشرب نبيذا ويمز بطرشي!، أمد يدي لآكل، فأكتشف أني جائع، آكل بسرعة لا تليق بي كضيف. سعيد مهران خارجاً من

السجن. يلاحظ هو جوعي، أراه يضع أطباقاً أخرى على الطاولة، بسطرمة وخبز محمص وزيتون ولبنة، هل هذه لبنة؟، مممممم لبنة فعلا!، أترك كل شيء وأجلس على الأرض؛ لأقترب من الطاولة، طبلية عالية، كسرات الخبز تتناثر على الأرض ولا أهتم، ويسد الطعام حلقي فأشرب ما تبقى من الكأس، وهو يملؤه مرة أخرى، ثالثة؟ أو رابعة؟ لا أدري! أشبع تماماً وألتقط قطعاً من البسطرمة وأبقيها قليلاً في فمي، وأشرب النبيذ بعدها مباشرة، يختلط الطعمان في فمي، أنا في حاجة إلى سيجاره.

"ظل الحال هكذا مدة طويلة، كتب كثيرة في المكتبة دون مترجم، لم يلتفت أحد لغياب اسمه، تعامل الناس مع تلك الترجمات على أنها خيال، ألف ليلة وليلة، لم يناقش أحد من قبل جودة الترجمة، الترجمة كانت كاملة، بلا أخطاء أو عيوب أو هوامش كثيرة أو قليلة، فلا تجد إلا القدر المطلوب فقط من الهوامش، لم يسأل أحد عن المترجم، كان النقاش يدور حول براعة الكاتب من ناحية، أو عن مدى ركاكته إذا كان ركيكاً.

هناك اعتقاد سائد بأن تلك الترجمات أمينة وبعيدة تماماً عن خيانة النص الأصلي، كما أخبرتك، ترجمات كاملة. لم تحول النص الهزيل إلى نص متميز، ولا يمكن أن تسقط الآخر المتميز في هاوية الركاكة أو الاصطناع. أعوام طويلة مضت، وكثير من المترجمين

يأتون إلى المكتبة لنسخ ترجمة من تلك الترجمات، أو لتصويرها، أو حتى لسرقتها، تساعدهم تلك الترجمات في عملهم، بعضهم عدل في إحداها لتصبح أقل أمانة وأكثر خطأ، ثم نسبها لنفسه وكانت سبباً في شهرته، آخرون نشروها كما كتبت، مصحوبة بأسمائهم على الأغلفة، بلا تعديل أو تغيير، بينما قرأها بعضهم بغرض التعلم، قرأوها بالتوازي مع النص الأصلي، الأمين منهم انتهى إلى أن هذه الترجمات مستحيلة وخارقة للعادة، وليست مصدراً للتعلم أو موضوعاً للنقد، بل هي سبب للمتعة ومدعاة للتأمل، قد نتجاوز قليلاً و نقول أنها ترجمات إلهية، كل هؤلاء لم يسأل أحدهم عن شخصية المترجم.

حتى جاء شخص ما في أحد الأيام، وضع كتابه بين الأرفف. الصيرفيني سمع عن المكتبة، علم أن نجيب محفوظ وضع فيها كتبه آملاً في ترجمتها، وقتها كان محفوظ قد حصل على نوبل، انتشر اسمه في الغرب و ترجمت كل رواياته. ربما ذكر كوكب عنبر في لقاء صحفي، و التقطت الصيرفيني كلماته. كان الصيرفيني حريصاً على وضع كتابه في كوكب عنبر، وكل أمله أن يترجمها مترجم نابه، مترجم متخصص في التعمية، مستخرجٌ للمُعمى. اتجه من فوره للطابق الأعلى، ساعدته أنا في كتابة اسم الكتاب السابق، ترك كتابه وشكرني، ثم عاد إلى الشارع. و منه إلى بلاده. كان يأتي هنا كل

بضعة سنوات ليضع نسخاً أخرى من الكتاب، ستجد عدة طبعات من كتاب الصيرفيني داخل كوكب عنبر. هذا آخر الجيل الذي آمن ببركة المكتبة، بالطبع أتى الكثيرون بعده ليهدوا إلى المكتبة كتباً قاموا بتأليفها، كانوا راغبين أيضا في ترجمتها، لكن ليس عن إيمان، بل على سبيل المزاح أو العادة فقط، تلك العادة التي سمعوا أن الكثيرين مارسوها بانتظام وإخلاص.. مجيء الصيرفيني كان حداً فاصلاً. ترجم كتابه في سنوات طويلة، أثناء ذلك كنا نتصفح الكتاب مذهولين من تفاصيله ولغته، حاولتُ أن أستخرج اللغة، أن أربط الأحرف بأحرف معروفة، لم أيأس حتى مع عدم منطقية الأمر، لكني بالتدريج تركت الكتاب منتظراً الترجمة، المهمة كانت فوق قدراتي. في النهاية لم أحلل أياً من الرموز، وانحزت إلى الجانب المنطقي وتركت الكتاب. لا أعلم هل عرف الصيرفيني بترجمة كتابه أم لا؟ لن يعرف إلا إذا عاد مرة أخرى وبحث عنه، لكنه لم يأت حتى الآن، لا أعرف إن كان حياً أو ميتاً. في النسخة المترجمة – كما في النسخة الأصلية – ستجد فصلا يحكي عن العمارة، الصيرفيني معماري في الأصل، وفصل العمارة من أجمل ما رأيت، بحيث يجوز تقديمه في كتيب منفرد، اهتم كثيرا بالكباري والأنفاق والمنشآت العامة، والمباني المقامة على قمم الجبال، ثم وصف مكتبة عامة، قد يكون في وصفه ذاك علامة ترشدك....

كنت مبتسماً وعيناي نصف مفتوحتين، "أفقد المعنى متعمدا" لا أدرك ما قاله سيد، فالنعاس حط علي كأنه الوحي، أمد يدي لأرشف بقايا النبيذ، وقبل أن تصل يدي للكأس كان سيد يصب المزيد، كانت برودة النبيذ قد زالت وأصبح في درجة حرارة الغرفة، ليته يبرده مرة أخرى، لا أقوى على شرب الكأس كاملا، أتركه على الطاولة وأمدد جسدي على الأرض.

سيد

الأستاذ عبد المحسن دقيق في مواعيده، الرجل سيف قاطع، ولولا عدم التزام من يتعامل معهم لأصبحت مواعيده محكمة ودقيقة. هاهو يضرب الجرس ويفاجئني بابتسامته كما يفعل في كل مرة أراه. عندما كان محسن مديراً لإحدى مكتبات الهيئة العامة للكتاب كان وجهه خشبيا، قُدَّ من صخر، لا يبتسم أبداً ولا يلين، شاطر في بيع الكتب الساقطة، تلك التي لا تثير اهتمام أحد، وتركد في مخازن الهيئة. يضيف بيده كتابا منها على الكتب التي ابتعتها، ويقول أنه بجنيه واحد فلن يضرني الجنيه الناقص، حتى عندما يتخلص من الكتب كان يفعل ذلك بوجه جامد. كان مديراً ناجحاً، لم يخجل من المهمات البسيطة التي قد يتورط ويقوم بها في حالة تكاسل العاملين،

كحساب الأسعار وكتابة الفاتورة، ووضع الكتب في كيس بلاستيكي. كل هذا بنفس الوجه الجامد.

كنت قد يئست في يوم ما من العثور على جزء ناقص من كتاب ضخم، وكنت قد سألته مراراً عن ذلك الجزء، فيخبرني في كل مرة بأنه نفذ، ولما ألححت في سؤالي، وزدت في استفساري، تحرك بهدوء إلى أحد جوانب المكتبة، فتبعته متوقعاً حدوث أمر غير معتاد، فهمس هو بصوت خفيض بأنه يستطيع جلب الجزء الناقص لي خصيصاً. "خصيصاً" هذه أفهمتني أن الأمر سيتم خارج مكتبة الهيئة، وأنه شخصياً سيبيعه، هكذا تبين لي أنه – على الرغم من منصبه – يتاجر في الكتب الصادرة عن الهيئة. علمت مع الوقت أنه قد يشتري كتباً قديمة إذا شعر أنها ذات قيمة وفائدة، وهكذا أصبحنا زبائن مشتركين، فأنا أبتاع منه ما أيأس من إيجاده، وهو يبتاع مني ما أمل قراءته.

دخل ليقيّم عدة كتب أرغب في بيعها، محسن يخزن الكتب في شقة صغيرة يملكها، يبتاعها مني ومن غيري ويخزنها حتى يطلب أحدها زبون ما. كان شاهر نائما على الأرض حينما دخل؛ "أستاذ شاهر!" متعجباً من وجوده على تلك الهيئة، تعجبت أنا من معرفته بشاهر، أخبرني محسن أن شاهر زبون أصيل مثلي تماما، يبادل محسن الكتب، ويعتبره هذا الأخير مصدراً كما يعتبرني كذلك. أخذ يقلب

في كومة الكتب المغضوب عليها، هو تاجر ماهر لا يرفض أن يبتاع كتاباً قيماً حتى ولو كان يملك منه نسخاً أخرى، ودائما كان ذكيا في تسعيره للكتب قبل أن يبتاعها مني، أو قبل أن يبيعها لي. لم يكن ليلتفت إلى باقي الكتب في الشقة لعلمه أنها ليست معروضة لمطالعته، وبالتأكيد ليست معروضة للبيع. أخبرته أن كوكب عنبر في طريقها إلى الفناء، وأنهم ربما يقيمون مزاداً على الكتب أو يبيعونها بالكيلو لتجار الأزبكية. فقال لي أن ما ادخره من مال لن يكفي لشراء غرفة واحدة من المكتبة. ولكني لمحت لمعة في عينيه توحي باهتمامه بالموضوع. حسب بسرعة ما يمكن أن ينفقه فى كتبي، وأخبرني بالسعر على استحياء كعادته، وأنا وافقت بلا جدال كعادتي، وانتهينا.

أتى شاهر مبكرا لأحُلّ له الألغاز، وكأني ساحر أو مؤسس المكتبة، أكبرت فيه اكتشافه للترجمات بسرعة، لم يكمل شهراً في المكتبة، بل وبالإضافة إلى اكتشاف الترجمات، أصبح يسرق الكتب كأي زائر. لكن ألست أنا من فتح عينيه على تلك العادة؟ شغلني بأسئلته عن الترجمات، ولم يترك لي فرصة لسؤاله عن صحة ما سمعته عن المترو والإزالة. ربما سنجد حلاً في إحدى تصميمات الصيرفيني، كوبري يعبر فوق المكتبة ليمر المترو من عليه، أو كوبري يمر من خلال المكتبة نفسها، مخترقاً الغرف، يمر المترو فتهتز الأرفف

والجدران، ونشاهد من خلال النوافذ عربات المترو وهي تمر بسرعة من خلال المبنى، ليصبح المكان مشهوراً بعد ذلك، ومقصداً للسياح الذين سيأتون ليشاهدون القطار الذي يخترق المكتبة.

ساعات ويأتي الزوار المحتفلون بالمعركة بين حنَّا وعلي، وسيكونا بالتأكيد نجمي الحفل، سيحاول علي تقليد أستاذه وسيلقي أبياتاً من الشعر الجاهلي كعادته بينما أنا أثبطه كعادتي، سيقبع أبو المعاطي في زاوية ما يعب الشراب وهو صامت، خائفاً من الكلام حتى لا يتفوه بما قد يضره حين يفيق، النصاب سيبدأ في ندب حظه وسيبكي على مهارته الضائعة وموهبته الموؤدة.

لا يزال الفتى نائماً على الأرض، يأتي النصاب مصطحبا حنَّا الناسخ، تكفل هو بإحضاره إلى مترلي، وقد ظننته سيمانع عن المجيء أو سيتحجج، لكنه في النهاية أتى. حنَّا صامت كما توقعت، وأحمد عبد الرحيم يتحدث عن معرضه، وسيظل يتحدث حتى ينتهي المعرض، ومعارض جاليري جويا تستهلك نصف خلايا الكلام عند عبد الرحيم، فهو قبل المعرض يستغرق في الترويج له بين معارفه، ويطبع المطويات ليعلم الناس بميعاد ومكان المعرض، ويوزعها في أماكن متعددة في وسط البلد، ويضع أعدادا منها في المكتبة، ويمر على هذا وذاك، زائراً لمعارض أصدقائه ومعارفه، متصلاً بمعارفه من الصحفيين، يعلمهم بميعاد المعرض ويؤكد على نشر صورة له مع

الخبر، ويحرص على حضور صحفي أو اثنين، مع مصور بالطبع لالتقاط صور للمعروضات.

يقف أحمد عبد الرحيم إلى جانب المصور أثناء عمله، ويكون حريصاً على إبراز أشياء وإخفاء أشياء أخرى. دائماً ما يقول أن الثقافة أصبحت بصرية، وأن الصورة أبقى من الكلمة، وأن الفوتوغرافيا لو كانت موجودة في زمن الأنبياء لتضاعف عدد المؤمنين. وهكذا يأخذ في الهرطقة رابطاً الصورة والرسمة واللوحة بكل شيء في الحياة. أما بعد المعرض فهو وقت توجيه الشكر لكل من ساهم في إنجاحه، وأيضا وقت تسجيل أسماء من لم يزوروا المعرض، أو من لم يكتب عنه في صفحته أو جريدته، يهاتفهم معاتبا برقة على تقصيرهم، فهم تكاسلوا أو أهملوا، ويظل يطلب منهم وعوداً ببذل مجهود أكبر في المعرض القادم. ويتبع ذلك احتفال كالذي نقيمه اليوم، و أنا لا أهتم إلا بالاحتفال، نميمة وراح مستوردة. "تبرٌ تُريني الدر حَببٌ" "مُشتاقة تسعى إلى مُشتاق" أما عن معرضه ومعروضاته وهراءه، فأتركه لزمرة المهووسين.

يدخل علي أولا وخلفه أبو المعاطي، في نموذج واضح لكراهية علي للفلاح المنبهر، ذلك أن علي لا يكلمه مطلقا، حتى صباح الخير يطلقها في الصباح مغمغما وكأنه يسبه. يدخل أبو المعاطي إلى المطبخ ليحضر معي المزة ويحمل الزجاجات كعادته، "خادم القوم سيدهم"،

يظن أنه مثل، ولو علم بأنه حديث نبوي لما قاله في موقف كهذا. وعلى الرغم من ما يبدو عليه من سذاجة و خفة عقل، إلا أنه أقلنا تأثراً بالخمر، يظل في زاويته يعب عباً، كأنه يشرب ماءاً قراحاً، وحينما ننتهي يستقيم ليمشي بدون أن يهتز له طرف.

يبدأ شاهر في التحرك متأثرا بالجلبة، منظره لا يثير التساؤلات إطلاقاً، وكأنه اعتاد النوم على سجادتي. أو كأنهم اعتادوا مني كل غريب. يستيقظ أخيراً ويجلس مكانه على الأرض مرتخياً، يحيي الحاضرين ثم يفتح كتاب الصيرفيني ويتصفحه حتى يصل إلى الفصل الأخير، فيتربع على الأرض والكتاب على حجره, لا أسرار بعد الآن، كل الحاضرين يعلمون أنه أخذ الكتاب من المكتبة، فالكتاب لا مثيل له في مصر. والكل أيضاً يعلم ما سيقرؤه شاهر الآن. قرأناه كلنا من قبله، نكاد نحفظ الكلام و الوصف و الكلمات الغريبة. نتابعه كلنا ببصرنا منتظرين تعليقه بعد الاكتشاف. يتنحنح هو، يتخلص من بلغم وهمي، ويجرب صوته: هيييه، هيييييه أطول من سابقتها. إسسس!، واحد اتنين تلاته!، واحد!، واحد!، واحد!، هسسسسس! ثم يبدأ في القراءة بصوت عال رنان:

"المُصنع الحركيّ أكمل شاهندي.

المُنشأ مكتبة عامة باسم مسك الليل.

بدأ الحركيّ أكمل شاهندي في إنشاء مكتبة مسك الليل بعد زواجه مباشرة، أسمى المكتبة بهذا الاسم بناءاً على طلب عروسه، كانت المكتبة هدية الزواج خلافاً للعادة في تلك الأيام، فقد طلبت منه زوجته تسمية المكتبة التي ينوي تأسيسها مسك الليل وهو نفس اسمها. أكمل شاهندي حركيّ شهير، استطاع بعد مدة من عمله مهندسا حركياً تطوير قدراته في الكتابة، مما أهله لاستبدال بنان سبابته بريشة حبر كما هو معتاد مع الكتاب المحترفين، وهو ما يتطلب عادة موافقة مُنعقد الكُتَّاب. أصبح أكمل شاهندي حركياً، وكاتباً محترفاً، وعضواً في مُنعقد الكُتَّاب، وهو شيء لا يوافق عليه مُنعقد الكُتَّاب في غالب الأحوال.

ضداً لكون أكمل شاهندي حركياً ماهراً، ظل مدة طويلة جداً يصنع في مكتبة مسك اليل، لأنه أراد أن تكون للمكتبة وظيفة إضافية لوظيفة تخزين الكتب. وهو الفكر الشاهندي الذي نورد عنه أمثلة في هذا الباب، ما كتبنا عنه سابقاً، ذلك الفكر المَعني والمهتم بإيجاد وظائف متعددة للبناء. الوظيفة الأولى لمكتبة مسك اليل كانت تخزين الكتب، بينما الأخرى كانت ترجمة الكتب. الوظيفة الأولى تتطلب عملاً مكرراً، ومعروفاً، ومخططاً، وتم تنفيذه مرات متعددة قبل الآن. أما الوظيفة الثانية فغير مكررة وأصيلة ولا مثيل لها، وفك تعقيداتها كان السبب الرئيسي في إطالة مدة البناء.

صنع أكمل شاهندي آلة ترجمة ضخمة تحت جسم المكتبة، انتهى من صنع الآلة في وقت قصير، لكن مدة الاختبار طالت، ظل أكمل شاهندي يختبر الآلة ويطورها، يضع كتاباً مكتوباً بلغة ما في كبسولة الوارد، ينتظر الآلة لكي تعمل، ثم يذهب إلى كبسولة الصادر لكي يقرأ النص المترجم، ثم بعد ذلك يراجع النصين معا، وعندما يلاحظ أن كلمة ترجمت خطأ كان يبدل أحد تروس الآلة لكي تصح ترجمة الكلمة، أو يصنع ترسا آخر أكبر أو أصغر، أو يضيق محيط أحد السيور أو ربما اضطر إلى توسيعه. كان يكتشف أحيانا أن هناك كلمات بلا ترجمة، فيضطر إلى إضافة ترس جديد إلى الآلة، وقد يكون موقع هذا الترس في قلب الآلة ولا يمكن الوصول إليه إلا بتفكيك جزء منها وإعادة تركيبه، وهو ما حدث لكي يترجم كلمة "فأر وهو الفعل الذي أدى إلى المثل الشهير "الفأر الذي فكك الآلة"

كان يوم انتهاء أكمل من اختبار الآلة هو يوم وفاة زوجته مسك اليل، وهو ما أحزنه كثيراً، فقد ماتت قبل أن يتم وعده لها. أعلن عدم رضائه عن الآلة ككل، أعلن أنها آلة معيبة وغير صالحة للعمل، واعتزل الناس.

لكن مُنعقد الكُتّاب استطاع تجربة الآلة، حيث وضع في كبسولة الوارد عدداً من الكتب بلغات مختلفة؛ لتقوم المكتبة بترجمتها،

وتخرج آية في الكمال. ذهل أعضاء المُنعقد من فصاحة مكتبة مسك الليل، ومن سرعة إجراء الترجمة، كانوا يسمعون طنين التروس والسيور ويشعرون باهتزازها في الأسفل، غير فاهمين لما يحدث في الحقيقة، ولما شاهدوا الآلة الهائلة المستقرة في قاعة ضخمة تحت المكتبة، أدركوا أنهم لن يفهموا كيفية عملها أبداً.

كانت الآلة تتكون من ملايين التروس والسيور والروابط، بعلو مضاعف مرات عديدة عن قاماتهم، وبأبعاد عجز بصرهم المادي عن إدارك أطرافها، كانت الآلة ضخمة للغاية، وظن بعضهم أنها أضخم آلة على الإطلاق، تقبع تحت أضخم مكتبة على الإطلاق. قرر مُنعقد الكُتَّاب إغلاق باب الآلة ووضع حراسة مشددة عليها، استقروا على عدم محاولة فهم ما يحدث داخلها، ويكفيهم الاستفادة من ترجمات الآلة والمكتبة.

في البداية كانت آلة الترجمة تترجم ما يوضع داخل كبسولة الوارد إلى لغة واحدة فقط، وبالتدريج — مع مرور الوقت — أصبحت الآلة قادرة على ترجمة الكتاب إلى عدة لغات، وهو ما يؤكد أن الآلة تستطيع تطوير نفسها، لم يعلم أحد كيف يتم ذلك. بعد مرور سنين عديدة، قرر مُنعقد الكُتَّاب نقل المكتبة إلى مكان آخر، كانت المكتبة قد امتلأت تماماً، مع ذلك استمرت الآلة في ترجمة كل ما يوضع داخل كبسولة الوارد؛ لذلك كان الحل الوحيد

هو إنشاء مكتبة جديدة. حدث هذا بعد عقود طويلة من تأسيس المكتبة.

وعليه تم فتح باب الآلة المغلق منذ مدة طويلة، وقام حركيون بمساعدة كتاب ومترجمين بتفكيك الآلة قطعة قطعة، تم رسم خريطة توضح التركيب المعقد للتروس والسيور وناقلات الحركة، بغرض إعادة تركيب الآلة مرة أخرى. بدأ مشروع إنشاء مكتبة أكثر ضخامة من مسك الليل، وبالتوازي بدأت أعمال تجميع الآلة في قبو ضخم أسفل المكتبة الجديدة، انتهى مشروع إنشاء المكتبة سريعاً، لكن لسبب ما غير معلوم، وبعد الانتهاء من تركيب الآلة، لم تعمل آلة الترجمة.

حاول الحركيون بذل كل المجهود الممكن لكي تعمل الآلة مرة أخرى، أعادوا تفكيك وتركيب الآلة، وتأكدوا من وجود التروس في أماكنها الصحيحة، قيل كلام كثير عن نقصان ترس ما أو مسمار ما، لكنهم أكدوا مراراً أن المكتبة وآلة الترجمة مشروع مهم، وأنهم تعاملوا معه باهتمام بالغ، ولا مجال مطلقاً لفقدان ترس أو غيره.

وهكذا باءت محاولاتهم الدؤوبة لتحريك الآلة الضخمة بالفشل. مازالت الآلة إلى الآن متوقفة ولا تعمل، ومازالت المكتبة في

مقرها الجديد منتظرة إصلاح الآلة، واكتفت بالقيام بوظيفة واحدة هي تخزين الكتب.

و هكذا سيداتي آنساتي، نقلنا لكم الحفل الساهر من مسرح سيد الأهل، ذلك الحفل، الذي أحياه الراوي الشهير، شاهر شاهر – لا أعرف اسمه الثاني – الذي أمتعنا بكشف السر، وفتح المغاليق، واستخراج الحقيقة الساطعة المبرهنة، بصوته الرخيم الوديع، وطلته المهيبة الرائقة، وإلى لقاء آخر، في حفل آخر، وسلام الله عليكم ورحمته وبركاته.

و لما وجدَنا أبو المعاطي صامتين، منبهرين بالكشف العلني لأول مرة عن ما نعرفه جميعاً، عن ما قرأناه جميعاً من قبل، صاح في حكمة الشيوخ: دنيا فانية ! فلم يرد عليه أحد.

شاهر

تأخرت يا أستاذ.

مفاجأة من الأستاذ عبد الرحمن، كنت كتبت مختصراً متعجلاً للتقرير، وأقف الآن أمام مكتبه لأعرضه عليه. أدركت بالأمس أني أهملت التقرير، وأنه علي أن أتحرك قليلاً، فكتبت صفحات قليلة تلخص ما أنوي كتابته في التقرير. نظر هو في الأوراق صامتاً، لاحظ أن الاوراق غير مصدرة باسم الهيئة، تعجب لما قلت له أن تلك الأوراق مختصر التقرير فقط. قال لي أن زميلاً كتب التقرير وانتهى الأمر. الأستاذ عبد الرحمن لما وجدني متأخرا كلف زميلاً بأداء المهمة، وقد أداها بإتقان، فكتب تقريره في يوم واحد. تقريري هذا لم يعد ذا قيمة. تعجب عبد الرحمن من حماسي الواضح في الأوراق، وطلبي تحويل خط سير المترو، قال أنه أوضح لي ما المطلوب منذ البداية، وأنا تحركت في اتجاه مخالف للاتجاه المفترض، قرار الهدم مأخوذ منذ البداية و لا رجعة فيه، وما نفعله هنا استكمال للأوراق ليس إلا يخبرني بأن الشك راوده بعد مخالفتي لطلباته حينما تحدثنا في المرة الأخيرة، لكنه لم يظن أني قد أكتب مثل هذه التوصيات.

خرجت من مكتبه وأنا يائس تماما، انتهت المهمة وسأعود مرة أخرى لمكتبي وقارئي الأهرام والجمهورية، وتسلسل اليوم الذي لا

يتغير. أهرام إفطار شاي أهرام حكي نكتة شاي توقيعات كلمات متقاطعة سودوكو جدال ثم نكرر ما حدث في اليوم التالي. نحن نحرص على الترتيب كأننا في صلاة.

أفكر في العودة لعبد الرحمن لأطلب منه مهمة خارجية أخرى، هذه المرة سيطردني من المكتب حتماً. حاولت أن أتلكع أثناء سيري، فلا سبب للتعجل والذهاب إلى مكتبي. عند الباب أدركت ما سيحدث أخيراً، ستهدم المكتبة، سنوات وسأجد مكانها محطة مترو تغص بالناس، وستزال آلة الترجمة. ستمحى في وقت قصير. في عالم الصيرفيني كان الهدف من الإزالة هو إنشاء مكتبة أكثر اتساعاً، كانوا يرغبون في تحديث المكتبة فخربوها. بينما هنا هم يجهلون أصلاً ما يحدث داخل كوكب عنبر.

فكرت أن أسجل في التقرير خاصية المكتبة، بالتأكيد ستلفت فكرة ترجمة الكتب نظر أي شخص، تخيل نفسك تضع كتابا على الرف لتتم ترجمته بعد عدة أيام تلقائياً، بلا تعب أو مجهود. تخيل أن المكتبة تقوم بهذا العمل بلا طاقة أو موارد أو مساعدة بشرية، ثم تأتي الحكومة بعد ذلك لتهدمها. بالطبع ستتراجع مهما كانت حكومة فاسدة. فكرت أيضاً في أن أبسط الفكرة قدر المستطاع، سأحكيها بطريقة مباشرة، بلا شروحات د سيد المناورة. سأرسم رسومات توضيحية في التقرير، سأطلب من أحمد عبد الرحيم أن يرسمها لي،

وسيراجع د سيد النص مضيفاً عليه الرصانة والفصاحة. فيم أفكر؟، قُضي الأمر.

بالأمس وأنا نائم في شقة د سيد، رأيت أني أدخل شقتنا القديمة، الحوائط أصبحت ذات لون أبيض ناصع، والشقة اتسعت كثيرا، أصبحت حميمية للغاية، رأيت مفرش السفرة الأبيض المزركش مكوماً كثيفاً، بجانب السفرة كراسي القهوة الخشبية التقليدية، مكتوب على قاعدهما الزيني بدمياط، من سقف الصالة تتدلى ثريا نحاسية صدئة ذات أذرع متعددة، هناك إبريق وطشت نحاسيان موضوعان على طاولة مرتفعة قليلاً.

سمعت صوت انفجار في الخارج بحيث اهتز المبنى قليلاً، ثم وقع انفجار واهتزاز آخر، يهدأ كل شيء مرة أخرى، ولكني أسمع صوت الباب يفتح ثم يقفل، أسرع إلى الباب خوفاً من اللص، وجدت فتى زنجي مرسوم بالأبيض والأسود، انسان كامل لكنه مرسوم بقلم رصاص، بملامح مبالغ فيها، شفاه ضخمة بارزة، أنف أفطس، وجمجمة صغيرة كأنها ورم يعلو رأسه. كان يمسك كتاباً ويقرأ منه بآلية كأنه يتلو قرآنا، لكني لم أفهم كلمة واحدة مما كان يقرأ. وكان يكرر جملة واحدة بلا كلل. يهتز نصفه الأعلى بسرعة و رتابة مع كل تكرار للجملة. أدركت أنه استولى على الشقة بشكل ما،

شعرت بالخسارة فادحة، أخذت أضربه على قفاه بكل قوتي، بينما هو مستمر في القراءة غير عابيء بي.

كانوا جميعاً يشعرون بالأسى عندما أخبرتهم أني أشعر بالذنب، أنا من سيتسبب في ضياع المكتبة، أنا من سيكتب تقريراً يوصي بالهدم، هذا أمر من رئيسي ولا أستطيع مخالفته، قاموا بتهدئتي. قالوا أن لا حول لي ولا قوة في أمر كهذا. هل يستطيع أحد اعتراض القطار؟ وماذا فعلت الدولة للذين فقدوا منازلهم في ميدان العباسية؟ ومهما كان التعويض المادي مغرياً فهو لم يكن كافيا بالنسبة لهم، فما بالك بحالنا.

كلهم كانوا يعرفون مصدر الترجمات، لم يثرهم وصف المكتبة العامة الذي قرأته في كتاب الصيرفيني، فقط أحزنهم ما كانوا يتوقعونه من هدم للمكان. أنا أخدع نفسي، كنت أعلم أن قرار هدم المكان قد صدر قبل أن أبدأ المهمة، وكنت أيضا متأكداً من استحالة استمرار المكتبة. لم أنا أحاول عدم تصديق ما حدث في مكتب عبد الرحمن؟ أكثرهم تأثرا كان حنًّا الناسخ، ظل يصور صفحات الترجمات ليحفظها من الضياع، النسخ وحيدة وغير مكررة، قد تحترق أو تسرق، أو قد تهدم المكتبة ويضيع إلى الأبد مصدر الترجمات كما سيحدث قريباً. في ذلك الوقت سيكون هو جاهزاً بنسخ الترجمات التي ستقاوم الفناء. كالعـــادة وبشكل نمطي، سخر

د سيد من كلامه واتهمه بالرومانسية المفرطة وأنه ابن جيل ألقى بالبلد في الهاوية، وكلام آخر لم أتوقع أن يخاطبه به وهو ضيفه.

علي أحمد ألقى القنبلة، قال بأن هدم المكتبة كان نجدة له، فهو يفكر في العودة إلى الترجمة بعدما عزف عنها مدة طويلة. المكتبة تأكلني! كما قال، تقلل من عزيمتي، كيف أستمر في الترجمة وهناك مثل هذا المترجم الكامل؟ هنا أدركت أنه كان يستحق سخرية سيد وانتقاده.

زميلٌ ما كتب التقرير في يوم واحد، دون أن يتحرك من مكانه. تحقيق الطموحات سهل في الحكومة، فقط افعل ما تؤمر، ثم تدور العجلة بأسرع مما هو متوقع، والأستاذ عبد الرحمن أخبرني أن لجنة من الهيئة سوف تذهب إلى المكتبة لنقل المحتويات إلى الإسكندرية، هناك مخزن تابع للهيئة، فيلا قديمة، لا أذكر كلمات الأستاذ عبد الرحمن جيداً، الصدمة كانت سبباً لصمم مؤقت. ما زلت واقفاً في منتصف المسافة بين مكتبي و مكتبه، قدماي تتحركان نحو مكتبه مرة أخرى، أتردد وأعود في اتجاه مكتبي، ثم أرجع إلى مكتبه، وهكذا ظللت متردداً رائحاً غادياً حتى ظننت أني أصبت بالجنون، لا سبب حقيقي للدخول إليه، لكني دخلت وانتهى الأمر.

إذن فالمحتويات ستنتقل إلى فيلا قديمة تملكها الهيئة، مخزن للكتب. الأستاذ عبد الرحمن سلخني بلسانه، قال بأن رمي الكتب في المخازن كما كنت أتوقع مخالف لمبدأ الوقف، مؤسس كوكب عنبر أوقف المكتبة و ما حوت لله، وأحد واجبات الوزارة والهيئة الحفاظ على الأوقاف المتبقية من اللصوص وواضعي اليد و المبددين. وبالطبع، الاستمرار في تنفيذ فكرة الوقف. لذلك هم يدرسون اقتراحاً بتوزيع الكتب على مكتبات الهيئة، لا نستطيع إنشاء مكتبة جديدة، كما أنه لا توجد مكتبة تتسع لهذا العدد الضخم من الكتب. ثم نطق بالحق أخيراً، قال أني لا أصلح لمثل تلك الأعمال "المعقدة"، كتابة التقارير والمهمات الخارجية والأعمال المكتبية، وإنه خير لي أن أعمل في إحدى مكتبات الهيئة، أو في أحد المخازن، مثلاً ذلك المخزن الذي سننقل إليه كتب كوكب عنبر، سيكون مناسباً تماماً، أليس كذلك؟

انقطعت أنفاسي في المسافة الفاصلة بين مكتبي ومكتبه، وأنا متردد في الدخول إليه ومصارحته بما يقلقني، وهو الآن يبذل كل جهده لتحسين الحال. يحاول أن يواسيني و يعرض عليّ الانتقال لمكان آخر يناسبني. لا مفر من الهدم إذن، سأستسلم قنوعاً بما تم، ستُحفظ الكتب في أحد المخازن لحين نقلها إلى مكتبات أخرى، سأنتقل أنا إلى مكان آخر تابع للهيئة، وكل ما عليّ فعله هو تقديم

طلب النقل، لا حاجة لتوصية أحد الرؤساء، فرئيسي المباشر هو من اقترح النقل.

أتذكر الكتب الستة التي أخذتها من كوكب عنبر، كتابي الصيرفيني وحي بن يقظان و غيرهم. تذكار من المكتبة ولن أعيده إليها، لن تؤثر سرقتي تلك على الكتب أو الترجمات أو الجدران التي ستهدم، بالتأكيد سأعتني بها وأحفظها أكثر من غيري، لم يكن الأمر سيئاً في النهاية.

شاهر – سيد

أحضر حقيبتي استعداداً للانتقال، انتهى الأمر تماماً و أنا ذاهب لمكتبة أخرى، هناك سأتحول إلى سيد آخر، لكنها لن تكون كوكب عنبر أخرى. سيتوجب عليّ البدء من جديد، هذه المرة سأحافظ عليها من الضياع، سأمر يومياً على المكتبة بالكامل مُعدّلاً كل عيب قد يطرأ على ترتيب الكتب، بالطبع سأفهرس الكتب، سأقرأ كثيراً في علم المكتبات، سأعيد بناء المكان الذي أتوقع أن يكون منهاراً ككوكب عنبر، سأعلن عن وجود المكتبة بكل الطرق، سأساعد الزوار وأنصحهم بقراءة كتب معينة، سأصلح الأمر بالتأكيد. سأستكمل مشروع حنَّا الناسخ، وربما سأتصل به وأطلب منه المجيء لكي يتم هو مشروعه. قد أجد مكتبة أخرى عجيبة ككوكب عنبر، سأحافظ على سرها كما فعل زوار كوكب عنبر، لا مجال لإفشاء السر هنا، وفوق كل ذلك، سأشرب النبيذ بارداً.

لكن شاهر لن يستسلم، سيظل يبحث ويبحث. لن يعيد الكتب التي أخذها من المكان، بل سيحتفظ بها حتما، لن يقاوم الإغراء. هذه آخر الكتب المأخوذة من المكان. والباقي لا أعلم مصيره، قد تباع المحتويات في مزاد علني، وقد يشتريها عبد المحسن، وقد يشتريها تجار آخرون من تجار الأزبكية، أفضل الحلول أن تعرض الكتب على رصيف الأزبكية، وفي تلك الحالة فقط لن تموت كوكب

عنبر، ستنتشر الترجمات بين الناس، سيضعونها بين كتبهم على الأرفف وفي الخزائن. ربما يكتشف شاهر الأمر بمحض الصدفة، سيلاحظ زيادة في عدد الكتب في بيته، سيفهم أن ما حدث في كوكب عنبر يتكرر بشكل ما في بيته، وسيصل حتماً للسؤال الأخير، لكنه لن يجد إجابة، وأيضا لن يجدني لأجيب على ما لم أجب عليه من قبل.

ألوم نفسي مرة أخرى على عدم سرقة الكتاب السابع. لن يصبح للسرقة مدلول كوني ميتافيزيقي. أضع الكتب المسروقة بين كتبي، كذكرى أخيرة من آلة الترجمة. أكره الباكيين على ما ضاع، أكره من يندب حظ البلد المنهارة، أحسبهم دائما مبالغين في بكائهم، ممثلون. لكن هذه الخسارة فادحة، ضاعت آلة الترجمة إلى الأبد، لن أجد ترجمات كاملة بعد الآن.

رأيت النهاية قريبة، الخيط انقطع كما في أحلامي، أقترب من النافذة منتظراً صاحب العبّارة، يصل ويساعدني على الصعود إلى متنها، ثم يضرب قاع النهر بعصاته الطويلة محركا العبّارة ببطء. أفكر فيما ينتظرني على الضفة الأخرى، تختفي الموجودات، ترتفع العبارة فوق الماء، وعبر ماء النهر الرائق أرى مباني القاهرة تنساب ببطء تحت العبّارة في الأسفل، بينما يكتم الماء صوت ضوضاء الشوارع والناس، فقط أرى حركتهم بطيئة. تدريجياً تتكاثر الطحالب والألوان في ماء

النهر، لتخفي السيارات وأسطح العمارات وكل ما كان ظاهراً في الأسفل، أسمع الضربات الرتيبة للعصا، صوت الماء وهي تشقه برفق. أحدق بالأفق منتظرا الضفة الأخرى.

الكتب خان للنشر والتوزيع ®
٣/١ شارع اللاسلكي – المعادي الجديدة – ١١٧٤٢ – القاهرة.
تليفون:٢٠٢٢٥١٩٤٨٠٧+
بريد اليكتروني:info@kotobkhan.com
موقع اليكتروني:www.kotobkhan.com

يتم تكليف "شاهر"، الموظف بهيئة الأوقاف، بكتابة تقرير حول مكتبة عامة منسية بأحد شوارع العباسية القديمة: وذلك تمهيدا لهدمها كما تقتضي ضرورات التحديث العمراني، ولإفساح الطريق أمام خط جديد للمترو سيمر بالمنطقة.

يقضي شاهر أياما بالمكتبة ليدرس أحوالها، ويتعرف على موظفيها وروادها، فيكتشف وقائع غريبة تجري بين جدرانها، وتنفتح أمام عينيه متاهة من الكتب والنصوص والحكايات المتداخلة، ويجد نفسه طرفا في شبكة علاقات بين بشر غريبي الأطوار.. وكلما ازداد تعلقه بالمكتبة المسحورة ازداد يقينا أن تقريره -مهما أوصى- لن يفلح في إنقاذها من الإزالة.

في لغة تتراوح بين الرصد المحايد لعالم قديم يتداعى، وبين جموح فانتازي يقارب الهذيان، يصوغ محمد ربيع في روايته الأولى "كوكب عنبر" سرداً ممتعاً يعمد إلى كشف طبقات للحلم والأسطورة تحت جلد مدينة القاهرة العجوز، وتحت التفاصيل الخانقة للبيروقراطية المصرية.

ويتنقل خيط الحكي على طول الرواية، بين صوت شاهر وصوت الدكتور سيد المثقف العدمي والقارئ الدائم بالمكتبة، كلحن يعزف بآلتين مع ارتجالات تحيد بالسرد عن الخط الأساسي ثم تعود إليه بثقة واقتدار.

ومحمد ربيع، كاتب هذه الرواية، هو مهندس معماري شاب، من جيل بدأ ممارسة الكتابة على مدونات الإنترنت: وها هو بكتابه الأول يصنع لنفسه مكانا مميزا بين الروائيين الجدد في مصر.

ISBN 978 977 6306 07 6